اقرأ

طاهر الطناحي

أمير قصر الذهب

أمير قصر الذهب

طاهر الطناحي

أمير قصر الذهب

اقرأ ٦٧
دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

اقرأ ٦٧ — يونيو سنة ١٩٤٨



كلمة المؤلف

(١)

هذه القصة من قصص الحضارة العربية ، أو قصص الحياة الذهبية فى عصر الترف والذهب ، والمتاع والطرب ، ورخاء الفن والأدب . . وهى من صور السياسة والاجتماع ، فى زمن امتزجت فيه السياسة بنواحى الحياة العامة فى شتى صورها ، فكان للأدباء والعلماء ، والفلاسفة والفقهاء ، نصيب فيها وأى نصيب !

وقد ظهرت من هذه القصص الحلقة الأولى فى كتاب « على ضفاف دجلة والفرات » ، حوى خمس عشرة قصة ، صدرت منذ عامين ، ولقيت من خاصة القراء وعامتهم تقديراً أعجز عن شكره ، بل أخجل من ذكره .

أما هذه الحلقة فهى قصة واحدة تصور ألواناً من الحياة السياسية والفنية والاجتماعية ، وتحلل شخصية من أهم شخصيات التاريخ ، وأميراً من أشهر أمراء بنى العباس . وقد سميتها « أمير قصر الذهب » وهو اسم برّاق ، لأنه كان يسكن قصر جده أبى جعفر المنصور المعروف بقصر الذهب ، وهو أحد القصور

الشهيرة التى بناها فى بغداد ؛ ثم لأن عصره كان عصراً ذهبياً ، فكان الذهب من ألمع مفاخره وأكثرها تداولا وزخرفاً : فى وجوه الدنانير التى كانت تعد بمئات الألوف ، وفى نفائس الحلى والمقتنيات ، وفى الأثاث والرياش ، وبدائع القصور .

على أن الفن والثورة هما أبرز خصائص هذا الأمير الفنان ، فقد كانت حياته مزيجاً من الفن والسياسة ، والقديم والجديد ، واللهو والجد ، والزهد فى أبهة الملك والطمع فيه ؛ وكانت له آمال وأحلام جسام ، وجمع إلى فن الأدب فن الطرب ، وكان شاعراً فقيهاً ، وزعيماً مجدداً فى الغناء والموسيقى ؛ ثم أراد — إلى ذلك — أن يكون أميراً للمؤمنين وخليفة للمسلمين ، وملكاً للعرب والعجم !

عاش « إبرهيم بن المهدى »[1] فى عصر أخيه هرون الرشيد ، ثم محمد الأمين ، ثم عبدالله المأمون ، ثم أبى إسحق المعتصم ، وهو العصر الذى بلغ فيه الغناء والموسيقى العربية أعلى مكان من الإتقان والإبداع ، وظهر فيهما فطاحل المغنين والمطربين كإسمعيل بن جامع ، وإبرهيم الموصلى ، وإسحق الموصلى ، وغيرهم ؛ ولكنه كان — بما وهب من جمال الصوت والنبوغ

(١) ولد إبراهيم فى سنة ١٦٢ هـ وتوفى سنة ٢٢٤ هـ فى عهد المعتصم وعمره ٦٢ سنة .

الفنى – فى المقدمة بينهم ؛ وقد تزعم حركة لم يتزعمها أحد قبله ، وهى حركة التجديد ، فابتدع لنفسه مذهباً ، وابتكر ألواناً من الأنغام والألحان سجلها له تاريخ هذا الفن على الرغم مما وقع بينه وبين إسحق الموصلى من معارك .

وكان الخليفة المأمون فى أوج مجده وذروة سلطانه يوم ثار عليه إبرهيم وخلعه ، وبايع لنفسه بالخلافة فى العراق ، و لمس على أريكة الملك ، وحشد الجيوش لمحاربة ابن أخيه ، ولم يخش بأسه وما كان عليه من تأييد الخراسانيين له ، وضخامة قوتهم حوله ، وما أصاب من عدة ومال ورجال ، لأن طموحه كان يدفعه إلى تحقيق أحلامه فى العرش ، وكانت تلك الأحلام تساوره منذ مات الرشيد ، ولم يكن الغناء يعيبه لأنه لم يتخذه حرفة وتكسباً ، بل تعاطاه تلذذاً ومتاعاً .

(ب)

وفن الغناء والموسيقى من الفنون الرفيعة وهو محبوب فى الإسلام ؛ وقد كان بعض الخلفاء والأمراء يمارسونه و يدرسونه ويقربون أهله ، ويقيمون المسابقات بين المغنين ، ويجزلون لهم العطاء . وبلغ من إكرام الوليد بن اليزيد للفنان الشهير « معبد » أنه لما مرض آواه فى قصره وتعهده بحسن رعايته ، حتى مات فشيع جنازته هو

وأخوه « الغمر » إلى مقره الأخير .

وروى أن النبي (ص) قال لعائشة : « أهديت الفتاة إلى بعلها ؟ » قالت : « نعم » قال : « فبعثت معها من يغني ؟ » قالت : « لا » فقال النبي : « أو ما علمت أن الأنصار قوم يعجبهم الغناء ؟ ألا بعثت معها من يقول :

أتيناكم أتينـــاكم فحيونا نحييـــكم
ولولا الحبة السمرا ء لم نحلل بواديكم

وحدث أن النبي (ص) مر بجارية تغنى :

هل عـــلى ويحكم إن لهوت من حرج

فابتسم النبي وقال : « لا حرج إن شاء الله » . . ،

وحسب النبي العربي حباً للصوت الجميل وتقديراً له أنه اختار بلال بن رباح مؤذناً لمسجده ، وكان يؤذن بصوت مؤثر ، ويرتل الأذان بأنغام حلوة شجية .

ولما رجع النبي صلى الله عليه وسلم منتصراً من إحدى غزواته قالت له زوجه عائشة :

ـــ لقد أقسمت شيرين ، مولاة حسان بن ثابت ، إن رجعت منصوراً من غزوتك أن تغنى وتضرب بالرق فى بيتنا ، فماذا ترى ؟

فابتسم النبي وأذن لها فى الغناء والعزف فى بيته ، وجلس مع

بعض أهله وصحابته ومنهم الصديق أبو بكر يستمعون لشيرين .

ذلك لأن الغناء هو لغة الحياة والوجدان ونشيد الوجود لكل موجود ، فالطيور فى خمائلها ، والوحوش فى مجاهلها ، والدواب فى أكنانها ، والبلابل على أفنانها ، تترجم عن حياتها، وتترنم بشعورها ، كلما صفت نفسها وأحست بجمال الحياة ، ونشوة الوجود . ولا شيء يعدل الغناء والموسيقى فى تنبيه العواطف وإثارة الهمم ، وتهيئة النفوس لقبول الكمالات ، وتوجيهها توجيهاً حسناً صالحاً . قال أفلاطون :

« من حزن فليستمع إلى الأصوات الجميلة ، فإن النفس إذا حزنت خمد نورها ، فاذا استمعت لما يطربها اشتعل منها ما خمد وتحرك فيها ما جمد » .

وقد كان بإسبارطة فتنة خطيرة شملت أنحاء المدينة ، وانتظمت جميع سكانها ، واستحال على ولاة الأمور إخمادها ، ففكر بعضهم فى جمع الموسيقيين وتوزيعهم بين المتنازعين — وفعلوا — فأشاعوا بينهم الأنغام والألحان ، فصفت نفوسهم ، وطابت قلوبهم ، وهدأت أعصابهم ، وزالت عنهم أسباب الخصام .

وروى أبو بكر الدنيورى حادثة شاهدها فقال :

« كنت بالبادية فوافيت قبيلة من قبائل العرب ، فأضافني رجل منها ، وأدخلني خباءه فرأيت فيه عبداً أسود مقيداً بقيد ، ورأيت قبالته جمالا قد ماتت ، وبقى منها جمل ناحل كأنه ينزع روحه ، فقال لى الغلام : « أنت ضيف مولاى اليوم ولك أن تشفع لى عنده ، فإنه مكرم ضيفه ولا يرد شفاعتك » .

فلما حضر الطعام قلت : « والله لا آكل ما لم أشفع فى هذا العبد » .

فقال : « إن هذا العبد أفقرنى ، وأهلك جميع مالى » .

قلت : « ماذا فعل ؟ » ، قال : « إن له صوتاً جميلا ، وإنى أعيش من ظهور هذه الجمال ، فحملها أحمالا ثقالا ، وأخذ يحدو لها حتى قطعت مسيرة ثلاثة أيام فى ليلة واحدة من طيب نغمه ، فلما حطت أحمالها ماتت كلها إلا هذا الجمل ، ولكن أنت ضيفى ، فلكرامتك وهبته لك » .

فأحببت أن أسمع صوته ، وأصبحنا ، فأمره أن يحدو بى على جمل قوى ليستقى الماء من بئر هناك . فلما رفع صوته هام الجمل على وجهه فوقعت على الأرض ، وما أظن أنى سمعت قط صوتاً أحسن منه » !

والغناء والموسيقى وسيلة من وسائل التربية وعلاج النفس والجسم

من الأمراض(١) ومقياس لتقدم الشعوب ، ورقى أفرادها . وأنت تستطيع أن تحكم على الحالة الاجتماعية لكل أمة بنوع موسيقاها وما تتغنى به من أشعار وأقوال ، فإن كانت من ذوات الهمم العالية أو كانت من الأمم الذليلة المستضعفة بدا ذلك واضحاً فى قوة غنائها وارتقائه ، أو فى ضعفه وانحطاطه .

ولهذا نستطيع أن نحكم على حياة العباسيين فى العصر الذى عاش فيه إبرهيم بين المهدى بغنائه ، فقد كان غناء يشيع فيه تمجيد البطولة وصفات الكرم والشمم والإباء ، ولكنه شاع فيه أيضاً طابع العصر من الميل إلى اللهو والترف ، والتحرر من بعض النواهى ، والإغراق فى الملاذ .

(جـ)

وقد كانت الحقبة التى وقعت فيها حوادث هذه القصة حقبة اضطراب وفتن سياسية غير أنها من الوجهة الاجتماعية حافظت على الطابع العام لذلك العصر الذى ساد فيه الرخاء بالعراق ، وكانت الأموال تنصب فيه على بغداد انصباباً ، فكان البذخ

(١) أنشئت فى أمريكا مؤسسات للعلاج بالغناء والموسيقى منها مؤسسة هاريت إيرسيمور بنيويورك ، كما أدخل هذا النوع من العلاج فى كثير من المستشفيات .

والتأنق فى المأكل والملبس والمسكن لا يقتصران على الخلفاء والأمراء ، بل يتعديانهم إلى الكثيرين من السكان . وقد تنافسوا فى ضروب من اللهو وألوان المتاع ، وتسابقوا فى بناء القصور ، وتجميل المنازل وتنسيق البساتين ، واقتناء الأثاث والرياش الثمين ، والتحلى بالجواهر النفيسة ، والاستكثار من الجوارى الحسان ، ولطيف الخدم والغلمان .

وأدى رخاء هذا العصر وغضارة العيش فيه إلى تفنن أهله فى الملاذ ، والإقبال على شرب الخمور بين الأثرياء والأدباء ، وكان النبيذ أكثرها شيوعاً فى العراق ، وكان الخلفاء يستحلونه على أنه غير مسكر ، وصار شربه عادة مألوفة فى مجالس الغناء والموسيقى .

وأدخل العباسيون أسباب الأبهة والفخامة التى كانت للأكاسرة فى قصورهم ومجالسهم وسائر أحوالهم ، فاتخذوا المقاعد المطعمة والطنافس المطرزة ، والوسائد الموشاة ، والستور المحلاة بالنقوش البديعة ، وزينوا السقوف والجدران بالرسوم الذهبية والفضية الممثلة لما فى البر والبحر والجو من حيوان وأشجار وأطيار ومدن وأنهار ، وربما حلوا ستائرهم بالآيات الكريمة والأحاديث النبوية ومأثور الحكم والأشعار .

وقد أقام الخلفاء الحجاب ، ونظموا المقابلات بالاستئذان

لغير الأمراء ، وكانت التحية على الخليفة « السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته » . وقد يقبلون الأرض أمامه ، أو يقبلون يده على حسب الأقدار .

وكانت الأفضلية فى الجلوس بين يدى الخليفة فى ذلك العهد لبنى هاشم ، فيجلس الخليفة على السرير أو السدة ويجلس بنو هاشم على الكراسى عن يمينه والوزراء على الكراسى أو الوسائد عن يساره ويليهم سائر الطبقات .

ولا ينصرف أحد من مجلس الخليفة إلا إذا نهض أو أذن له بالإنصراف ؛ ولا يبدأ أحد بمحادثة الخليفة إلا إذا بدأه . وقد أباح الخليفة المأمون الكلام فى مجالسه للمناظرة فى العلم والأدب ، وكانت مجالسه لا تخلو من ذوى الظرف والخفة والفكاهة ، وكان الحديث يجرى باللغة العربية الفصحى ، كما أن الغناء كان بهذه اللغة ، ولم يقتصروا فيه على أشعار الحب والهيام ، بل تناولوا كثيراً من الأغراض حتى الرثاء .

وكان الخليفة إذا أراد أن يصرف جلساءه قال لهم : « إذا شئتم » أو « على بركة الله » أو غير ذلك حسب الأحوال . ومن انصرف من حضرة الخليفة مشى القهقرى ، ووجهه نحو الخليفة حتى يتوارى .

وكان التطيب بأنواع الطيب من دلائل النبل عندهم ، ومن

أقوالهم : « ثلاثة يحكم لهم بالنبل حتى يدرى من هم : رجل رأيته راكباً ، ورجل سمعته يعرب كلامه ، ورجل شممت منه طيباً » . وكانوا لاقتباسهم من حضارة الفرس يقلدونهم فى الملابس ، وبخاصة الملوك والأمراء ورجال الحكومة وأهل الثراء ، فلبسوا الأقبية والطيالسة والخفاف والجوارب ، مع بقاء العامة على ألبسة العرب ؛ ثم اختصت كل طبقة بزى خاص ، فالفقهاء والعلماء كانوا يلبسون عمامة سوداء ومبطنة وطيلساناً أسود. والقضاة يلبسون القلانس الطوال والطيالسة الرقاق ، وأما غيرهم من الطبقات فاختلفت ملابسهم باختلاف أحوالهم .

وكانت بغداد فى ذلك الزمان عروس الشرق والغرب ، وعاصمة الحضارة العربية بما جمعت من علم وأدب وثروة وطرب ، وما حوت من فن وافتنان وأنس وجمال ، فلا عجب أن يظهر فيها من رجال الدين والدنيا من برزوا فى العلوم ، ونبغوا فى الفنون ، وكانوا أئمة خالدين ، وقادة مجددين ، ونوابغ ثائرين ، كالأمير الفنان والثائر الألمعى إبرهيم بن المهدى .

طاهر الطناحى

الفصل الأول

الفنان النبيل

أشرقت الشمس على ربوع بغداد فى موكب حافل بالجلال والبهجة والجمال ، وكان اليوم باسماً حلواً ندياً ، وكان فى روائه وطيبه مونقاً صفواً زكيا —كان من أيام الربيع الضاحك الطروب ، الرائع فى بهاء طلعته ، المختال بسحر فتنته ، الشادى بأنغام الحياة وألحان الوجود ... .

وجلس إبرهيم بن المهدى بين مباهج هذا اليوم الوسيم على سرير من الأبنوس فى شرفة قصر الذهب — قصر جده المنصور — وعليه قبة فوقها طارمة[1] ديباج أزهر ، وهو يتأمل مجالى الطبيعة الحسناء ، وينظر فى نهر دجلة إلى انسياب الماء فى الغضيرة[2] الخضراء ، وبين يديه وصائف حسان ، كأنهن الياقوت والمرجان ، وحوله غلمان كالدنانير .

وكان القصر فخماً فاتناً يتألق ، قد أبدع فيه صانعه ،

---

(١) كلمة أعجمية معربة معناها ستر رقيق من الديباج

(٢) الغضيرة الأرض التى بها طين حر

فحلى جدرانه بصفائح الذهب والفضة والجواهر النفيسة ، والألوان الجذابة ، والنقوش الدقيقة . وله قبة خضراء تسمو متلألئة فى السماء إلى ثمانين ذراعاً كأن الثريا عرّست فيها ، أو كأن البدر شُدَّ فى أعاليها .

وقد شاده المنصور فى وسط بغداد بالقرب من دجلة بحيث يشرف على سائر احياء المدينة ، وأقام فى منتهى قبته فارساً يحمل رمحاً يتجه نحو مهب الريح أينما كانت . ثم بنى قصر الخلد ، وجعله مقر الخلافة ، وكان يسكنه هو وخلفاؤه من بعده . أما قصر الذهب فقد نزله إبرهيم بن المهدى بعد أبيه وجده . وكان إلى جمال بنائه وروعة زخارفه تحيط به الخمائل الغناء ، والحدائق الفيحاء ، وتعمره الجوارى الحسان ، وأنغام البلابل والغزلان .

ويعيش فيه إبرهيم فى هناءة الحياة الذهبية السعيدة التى عاشها خلفاء بنى العباس وأمراؤهم فى أوج مجدهم وذروة عظمتهم ، وضخامة ثروتهم ، وكأنما كانوا يحيون فى غرف الجنان .

وكان إبرهيم بن المهدى رفيع المنزلة ، نبيه الذكر ، شريف القدر ، زانه الشباب فزاده حسناً وإحساناً . وبسط الله له فى جمال الجسم ، وحلاوة الصوت ، وعذوبة النفس ، ودقة الحس ، والنبوغ فى فنى الأدب والطرب ؛ وكانت له طلعة سمراء جذابة تتهلل بالملاحة والظرف والنبالة .

* * *

مكث إبرهيم فى شرفة القصر يتأمل ساعة من الزمان تأمل المفكر الفنان ، ويستمتع بالرياض المنبسطة فى الحدائق الغناء وعلى ضفة النهر كأنما هى رياط[١] السندس أو مدنرات[٢] الدمقس ، والمياه تجرى تحته كالفضة الذائبة ، أو سبائك الذهب السائلة ، والطيور تغرد على الأفنان بأعذب الألحان ؛ وقد خفت الرياح حتى كادت أن تكون أزواحاً تهبط لتتصاعد ، وتتصاعد لتهبط فى طراوة ورشاقة ، وفى طيب كأنها تحمل أنفاس العاشقين .

وأخذت الأمير الفنان نشوة الطرب من هذا الجمال الباهر فاهتز النغم فى أطواء نفسه ، ونهض فنادى جواريه وغلمانه ليقيموا له مجلساً من مجالس أنسه . وأقبلت شارية[٣] ، وريّق ، وصَدوف ، ومعمعة ، ومكنونة . ووراءهن الراقصات وحاملو آلات الموسيقى ، وانتظموا فى صحن القصر ، وجلس إبرهيم على سدته ، وغنت شارية ثم ريق بعض أغانيه وألحانه على

---

(١) رياط : جمع ريطة ، وهى الملاءة ، القطعة الواحدة من النسيج .

(٢) ثوب مدنر بتشديد النون : أى مضروب بشكل الدنانير .

(٣) كبريات جوارى إبراهيم بن المهدى . وكانت شارية وريق تحسنان الغناء ، وصدوف تحسن العزف ، ومعمعة تحسن النفخ بالمزمار ، ومكنونة صاحبة إبريق الخمر تحمله لسيدها وتسقيه منه فى كأس له تدعى «الضحضاح»

عزف الآلات ، وكانت مكنونة تقدم الكأس لسيدها آنا بعد آن حتى ثمل بلذة الألحان ، ونشوة بنت الحان ، فقام من مجلسه ، وتناول العود من صدوف ، وجلس معهن يعزف ويغنى ، وكان أجمل أهل عصره صوتاً ، وأدقهم ذوقاً وأشدهم حباً للابتكار والتجديد ، لا يميل إلى المحاكاة والتقليد ، ويعيب على « إسحق[١] الموصلى » تعصبه للقديم ، مع علو مكانته ونبوغه فى صناعته .

وعلا صوت إبرهيم ، وانسابت تغاريده فى أجواز الفضاء ، فهزت كل من سمعها ، وملكت عليه نفسه ، فجلس الناس على شاطئ دجلة وفى البساتين القريبة يستمعون ويطربون ، وسكرت الجوارى والغلمان بعذوبة ما ابتكر هذا الفنان النابغ من أصوات وأوزان ، وسقط الإبريق والكأس من يد مكنونة ، وسالت الخمر وهى لا تدرى لما نابها من نشوة الطرب والأنغام .

* * *

نهض إبرهيم بعد ما استوفى تغريداً وتطريباً . وفى المساء خرج إلى قصر أخته عُليه[٢] بنت المهدى بالرصافة ، وكان قصراً

---

(١) من زعماء الغناء والموسيقى فى ذلك العصر وسيجىء ذكره

(٢) «علية» بضم العين وتشديد الياء . ولدت سنة ١٦٠ هـ وتوفيت سنة ٢١٠ فى عهد المأمون ، ولها من العمر خمسون سنة وتزوجت موسى ابن عيسى العباسى

فخماً جميلا بناه أبو جعفر المنصور لوالدها حينما كان ولياً للعهد ، وكانت كأخيها فنانة أديبة بارعة ، بل هى أميرة فى نسبها ، أميرة فى فنها وأدبها ، مليحة الوجه واسعة الجبهة اتساعاً كانت تتخذ لأجله العصائب المزدانة بالذهب والفضة والجواهر النفيسة ويقلدها نساء بغداد فى زينتها وزيها ، ويأخذن عن ذوقها الجميل .

وأقبل إبرهيم على أخته فوجدها جالسة على أريكة من العاج فوق سدة مزدانة بالوشى والديباج ، وقد تزيت بزى أميرات بنى العباس فى ذلك الزمان الناعم النضير ، ووقفت خلفها جاريتها الحسناء « خلوب » فى رشاقة وظرف ، ممسكة بمذبة أنيقة لتذب عنها كعادة بنات الأشراف ، وسيدات القصور ، فحياها وحيته مرحبة مهللة ، وقبلت كتفه وقبل رأسها ثم جلس ، فقال لها فى تجمل ولطف :

— كيف أنت يا أختى ؟ جعلنى الله فداءك :

فقالت فى رقة وعطف :

— بحمد الله يا أخى وفضله ورعايته . . .

قال لها :

— وكيف صحة جسمك ، وحال نفسك ؟

فقالت :

ــ صحة سابغة، وعافية كاملة، ونفس مطمئنة، وعيشة راضية .

ونظر إبرهيم إلى « خلوب » وتشاغل بالنظر إليها ، فلاحظت عليه هذه النظرات ، وتنبه لهذه الملاحظة فاستحيا ، وخفض رأسه ثم رفعه وقال :

ــ وكيف هناؤك فى حياتك يا أختى ؟

ــ هناء عظيم أشكر الله عليه ، لا ينقصنى فيه شيء ولا يشغلنى عنه شاغل .

ــ وكيف أوقاتك ومجالس أنسك .

ــ إنها طيبة سارة لا حظ للشيطان فيها .

ــ وكيف أنت يا أختى ؟ جعلنى الله فداءك .

وجذبه النظر إلى « خلوب » ، فلاحظت أخته ، فغض فى استحياء ثم عاد يقول :

ــ وكيف هناؤك فى حياتك يا أختى . . . وكيف أوقاتك ومجالس أنسك ... وكيف صحة جسمك ، وحال نفسك ؟!

فنظرت إليه فى عتاب وقالت :

ــ سبحان الله ، أليس هذا قد مضى أمره وأجبنا عنه ؟ !

فازداد خجل إبرهيم ، وهمَّ لينصرف مستأذناً ، فضحكت اخته وقالت :

ــ لا بأس عليك يا أخى ، اجلس ، فوالله إنى لمشوقة إلى

أنسك ، ولن أتركك حتى تسمع ما عندى وأسمع ما عندك ! .

قال إبرهيم :

ـــ هات يا علية

فنادت جواريها وغلمانها ، واستدعت أخاها يعقوب بن المهدى وكان يحسن النفخ بالمزمار ، وعقدت مجلساً بهيجاً مؤنساً وغنت من شعرها :

تحببْ فإن الحب داعية الحب
وكم من بعيد الدار مستوجب القربِ
تبصر فإن حُدثت أن أخا هوى
نجا سالماً ، فارج النجاة من الحبِ
إذا لم يكن فى الحب سخط ولا رضى
فأين حلاوات الرسائــل والكتب

وكان إبرهيم يهتز طرباً كلما تغنت بمقطع من مقاطع هذه الأغنية ، حتى إذا انتهت ناولته العود فأمسك به وغنى من شعره :

أجنُّ بليلى وهى غير سخيةٌ وتبخل ليلى بالهوى وأجودُ

فطربت علية طرباً شديداً ، وناولته كأساً من النبيذ وقالت :

ـــ وحياتى لتغنين

فعزف إبرهيم ، وغنى من شعره :

جدد الحب بلايا أمرها ليس يسيرا
كبر الحب وقد ما كان إذ حل صغيرا
ذلل الحب رقابا كان أدناها عسيرا
ليس لى من حب إلفى غير حرمانى السرورا

فطربت عليه ، وقامت فعانقته وقبلته فى فمه ، وقالت :

ـــ بارك الله لك يا أخى ، وبارك لنا فيك ، ولافض فوك ، وبعد شانئوك .

ثم جعلت تتحدث معه وتروى له من الأدب والشعر ويروى لها كذلك حتى امتد الحديث إلى ذكر أخيهما هرون الرشيد وأيامه ، فقال إبرهيم !

حججت مرة مع الرشيد فبينا نحن فى الطريق وقد انفردت وحدى وأنا على دابتى إذ حملتنى عيناى ، فسلكت بى الدابة غير الطريق ، فانتبهت وأنا على غير الجادة ، فاشتد بى الحر فعطشت عطشاً شديداً ، فارتفع لى خباء فقصدته ، فاذا بقبة وبجانبها بئر ماء بقرب مزرعة ، وذلك بين مكة والمدينة فاطلعت فى القبة ، فإذا أنا بأسود نائم ، فأحس بى ففتح عينيه ثم استوى جالساً ، فإذا هو بشع الصورة ، فقلت : يا أسود ، اسقنى من هذا الماء . فقال محاكياً لى : يا أسود اسقنى من هذا الماء ! . ثم قال إن كنت عطشان فانزل واشرب . وكان تحتى برذون

خبيث نفور فخشيت أن أنزل عنه فينفر ، فضربت رأس البرزون . وما نفعنى يا علية الغناء قط كما نفعنى فى ذلك اليوم فقالت علية : « وكيف كان ذلك » ؟

قال إبرهيم : لما أجابنى الأسود بهذا الجواب سرت ورفعت عقيرتى وغنيت ، فلحق بى ، وقال :

— أيما أحب إليك أن أسقيك ماء وحده ، أو ماء وسويقا ؟

قلت :

— الماء والسويق .

فأخرج قعباً له ، فصب السويق فى القدح ، فسقانى ، وأقبل يضرب بيده على رأسه وصدره ويقول : « واحر قلباه يا مولاى ، زدنى وأنا أزيدك » ، وشربت السويق والماء . ثم قال : « يا مولاى إن بينك وبين الطريق أميالا ، ولست آمن عليك العطش ، لكنى أملأ قربتى هذه ، وأحملها قدامك ، » فقلت له : « افعل » ، فملأ قربته وسار قدامى وهو يحجل فى مشيته غير خارج عن الإيقاع ، فإذا أمسكت لأستريح أقبل على ، فقال يا مولاى عطشت ، فأغنيه إلى أن أوقفنى على الجادة من الطريق ، ثم قال : « سر رعاك الله ولا سلبك ما كساك من هذه النعم » ، فلحقت بالقافلة ، والرشيد قد فقدنى ، وبث الخيل فى البر لطلبى ، فسر بى حين رآنى ، فأتيته فقصصت عليه الأمر ، فقال « على بالأسود »

فما كان إلا يسير حتى مثل بين يديه ، فقال له :

— ويلك ما حر قلبك ؟

فقال : « يا مولاى ميمونة » قال : « ومن ميمونة ؟ » قال : «حبشية يا مولاى» . فأمر من يستفهمه ، فإذا هى أمة لبعض أولاد الحسن بن على ، فاشتراها له ، فأبى مواليها إلا أن تكون هدية للرشيد ، فوهبها له .

فقالت علية لإبرهيم :

— رحم الله أخى الرشيد ، فقد كان نبيل النفس ، عظيم المروءة . لقد فعلها معى ، فهذا « طل » الغلام وهبنى إياه ليكون فى خدمتى وركابى .

فقال إبرهيم : « فإن لم يصبها وابل فطل »[1] !

فضحكت علية . ثم نهض وودعته أخته ، وانصرف إلى قصره ، وكان الليل قد انتصف ، فأوى إبرهيم إلى مخدعه فى سلام

---

(١) يقال إن «طلا» كان غلاما جميلا من غلمان الرشيد ، فأحبته علية وقالت فيه شعرا فنهاها الرشيد عن كلامه وتسميته ، فدخل عليها وهى تقرأ قوله تعالى : «فإن لم يصبها وابل فطل» وأرادت أن تقول : «فطل» فقالت «فالذى نهانا عنه أمير المؤمنين» فأقبل الرشيد عليها وقبل رأسها وقال : « قد وهبت لك طلا ، ولا أمنعك بعد هذا من شىء تريدينه» . والمؤلف يشك فى صحة هذه الرواية .

فى ليالى القمر

كانت الليلة التالية ليلة وضاءة صافية من ليالى القمر . وما أدراك ما هذه الليالى الضاحكة القمراء فى بغداد عروس المشرق فى ذلك الحين ، فقد كان الناس يخرجون فيها للتزاور وشهود مجالس الأنس والطرب والشراب إلى وقت أخير من الليل ، فيأخذون من اللهو ومتاع الدنيا ما شاءت لهم الحياة الرغدة الباسمة التى زخرت بأنواع اللذائذ والسرور على شواطىء الرافدين .

وكان إبرهيم بن المهدى ، قد اعتاد أن يخرج فى هذه الليالى زائراً لبعض آ له ، أو مؤانساً لأحد أصدقائه ، أو مناظراً لخصومه فى أغانيه وألحانه ، وقد مضى حين من الزمن لم تعكر الأحداث صفو بغداد وما يظلها من سعادة وهناءة عدا مقتل « الأمين » فقد هز هذا الحادث جوانب المدينة بل جوانب العراق ، هزاً أليماً . وكادت تحدث من أجله فتنة لولا ما كان عليه المأمون من قوة وعزم ، وما له من سلطان بين العرب والعجم ، فعادت إلى بغداد حياتها الناعمة وحظها السعيد .

---

(١) قتل الخليفة الأمين سنة ١٩٨هـ ولمقتله قصة فى كتاب على «ضفاف دجلة والفرات »

وخرج « إبرهيم » فى المساء إلى بيت صديقه مخارق المغنى فى زى العامة من العرب ، وقد خلع ملابس الأمراء ، فمر فى طريقه بدار رشيقة متقنة البناء ينم ظرفها وجمال مرآها على أنها لثرى كبير من الأثرياء . وكان هذا الثرى يدعى « أبا عبدالله » وهو من كبار تجار العراق الذين امتدت تجارتهم إلى الهند وفارس واليمن وبلاد الأحباش . وقد دعا نخبة من أصدقائه التجار بعد أوبة من أسفاره ليحيي معهم ليلة ساهرة عامرة بالغناء والموسيقى والشراب ورقص الجوارى الحسان . وكانت أمثال هذه الليلة تفتن عشاق الطرب من الأمراء والأعيان وأهل الفنون يغشونها سواء أكانوا من المدعوين ، أم من الهواة المتلذذين فنظر «إبرهيم» إلى الدار فإذا كف ومعصم لحسناء قد خرجا من إحدى نوافذها ، ثم إذا وجه فاتن كأنما هو وجه القمر يطل من هذه النافذة ثم يختفى كالبرق . فاستهواه ما رأى واستثار فؤاده ، وهو الشاب الأديب الفنان المملوء حياة وشبابا ، وشعوراً رقيقاً مرهفاً ، فوقف واجماً مفكراً فيمن عسى أن تكون هذه الجارية الفاتنة ، وفيما عسى أن يكون فى هذه الدار من الأنس والمتاع ، ثم إذا بتاجرين من المدعوين قد أقبلا ، وسلما عليه ، فسلم عليهما ، ودخلا الدار ، فدخل هو بينهما ، وهما يظنانه من أصدقاء صاحب الدار ، فلم يكن لهما عهد برؤية إبرهيم بن

المهدى ومعرفته عن كثب ، وكذلك كان أبو عبدالله ، فإنه لم يعرفه ، ورحب به عند قدومه عليه وظن أنه صديق صاحبيه أتى معهما تفضلا ورغبة منه فى المؤانسة والمجالسة ، وسماع الغناء مع سائر الأهل والاصحاب .

وجلس إبرهيم معهم متنكراً ، وانتهى الطعام وأقبلت جارية حسناء تدعى « خالدة » كانت صاحبة الوجه الفاتن والكف والمعصم جمعت بين القمر نوراً والغصن ليناً وهى كما قال بشار :

بنت عشر وثمان قسمت   بين غصن وكثيب وقمر

وكانت تتهادى فى استحياء وتمشى فى دلال وتثنٍ كأنما تمشى على عواطفها فتذيب القلوب وتسحر الألباب . ووراء هذه الجارية موكب من الجوارى الحسان وملاح الغلمان يحملون آلات العزف والطرب ، ثم جلسوا جميعاً على تخت بالقرب من فسقية جميلة وفى وسطهم خالدة وغنت لبشار بن برد :

لم يطل ليلى ولكن لم أنم   ونفى عنى الكرى طيف ألم
نفسى يا عبـــد عنى واعلمى   أننى يا عبد من لحم ودم
إن فى بردى جسماً ناحلا   لو توكأت عليه لانهـــدم
وإذا قلت لها جودى لنـــا   خرجت بالصمت عن لا ونعم
ختم الحب لها فى عنقى   موضع الخاتم من أهل الذمم

فما كادت تنتهى حتى امتلك القوم الشجو والطرب ،

واستعادوها فأعادت الغناء . ثم قال لها إبرهيم أسمعينا يا خالدة من العباس بن الأحنف فغنت :

خليلى ما للعاشقين قلوب
ولا للعيون الناظرات ذنوب
ويا معشر العشاق ما أوجع الهوى
إذا كان لا يلقى المحب حبيب
أموت لحينى والهوى لى مطاوع
كذاك منايا العاشقين ضروب
عدمت فوادى كيف عذبه الهوى
أما لفؤادى من هـواه نصيب

فاشتد طرب القوم ، وقال إبرهيم أحسنت والله يا جارية ولكن بقى عليك شىء! ! فعز عليها أن ينقدها وقامت نافرة وضربت بعودها الأرض ، وصاحت :

— متى كنتم تحضرون مجالسكم من لا يحسن السماع !

وخرجت ، فقام إبرهيم فى هدوء وثبات ، وأخذ العود فأصلحه واندفع يغنى بتلحينه :

أسرى بخالدة الخيال ولا أرى — شيئاً ألذ من الخيال الطارق
إن البلية من تمـل حديثه — فانقع فؤادك من حديث الوامق
أهواك فوق هوى النفوس ، ولم يزل — مذ بنت قلبى كالجناح الخافق

شوقاً إليك ولم تجاز مودتى ليس المكذب بالحبيب الصادق

وما كاد ينتهى منها حتى خرجت الجارية ، فأخذت بيده وجعلت تقبلها وهى تقول :

— المعذرة يا سيدى، والله ما سمعت أحداً يغنى هذا مثلك !

فقال إبرهيم : جعلت فداءك يا خالدة وما سمعت والله معتذرة أجمل منك ! وقام مولاها أبو عبدالله ففعل مثلما فعلت وقال مثلما قالت ورجاه أن يغنى صوتاً آخر فغنى من شعر بشار :

أيها الساقيان صبا شرابى واسقيانى من ريق بيضاء رود

إن دائى الظما وإن دوائى رشفة من رضاب ثغر برود

ولها مبسم كغر الأقاحى وحديث كالوشى وشى البرود

نزلت فى السواد من حبة القلـ ـب ونالت زيادة المستزيد

ثم قالت نلقاك بعد ليـال والليالى يبلين كل جديد

عندها الصبر عن لقائى وعندى زفرات يأكلن قلب الحديد

فتأوه جميع السامعين وهتفوا معجبين مكبرين وقالوا :

— هذا والله الغناء . . . هذا والله الغناء . !

وجاء من طرب القوم ما كاد يذهلهم ، وناشدوا إبرهيم أن يزيدهم ، فغنى :

هـذا محبك مطوى على كمده

صعب مدامعه تجرى على جسده

له يد تسأل الرحمن راحتـــه
مما به ويد أخرى على كبـــده
يا من رأى كلفا مستهتراً أسفاً
كانت منيته فى عينــــه ويـــده

فطربوا طرباً شديداً ، وغنى إبرهيم أصواتاً أخرى حتى منتصف الليل ، ثم انفض المجلس ، ونهض الحاضرون للخروج وساروا مودعين من أبى عبدالله ما عدا إبرهيم فقد رجاه أن يبقى ملاوة[١]من الوقت ، فمكث حتى انصرف القوم فقال له أبو عبدالله :

ــ ذهب والله ما خلا من أيامى باطلا إذ كنت لا أعرفك فمن أنت يرحمك الله ؟ . . .

فأبى إبرهيم أن يعرفه نفسه ، فألح عليه كثيراً حتى أخبره فبهت الرجل وقال : « الله أكبر ، سليل هاشم ، وحفيد العباس وأمير الغناء عندى . . . »

قال إبرهيم :

ــ لا تفضحنى يا عم يرحمك الله . . . فما كان ينبغى أن أغشى دارك فى هذه الحال !

فقال أبو عبدالله :

---

(١) الملاوة البرهة من الوقت

ــ لا بأس عليك يا سيدى فإن الدار دارك .

قال إبرهيم :

ــ أحمد إليك الله أبا عبدالله . . . وأتمنى لك حياة طيبة !

ونهض ليخرج ، فقال أبو عبدالله :

ــ لا والله حتى تقبل منى « خالدة » جارية لك ، فإنك أكرمتنى بأنسك ، وشرفتنى بضيافتك .

فاغتبط إبرهيم بهذه الهدية الحسناء

الفصل الثانى

الطموح

كان إبرهيم بن المهدى من أنبغ رجال عصره فى الغناء والموسيقى، وكان مجدداً مبتكراً ، ممتازاً بطرائق التجديد والابتكار ، ينتقد القديم وأنصاره، ويندد بزعمائه وفى رأسهم إسحق الموصلى. ومع أن أمه « شكله » بكسر الشين وسكون الكاف من أب أعجمى يدعى « شاه افرند » فقد كان إبرهيم أديباً عربياً صميماً ، خطيباً مصقعاً ، شاعراً راوية . ولم يكن فى لهوه وترفه مستهتراً متبذلا . وكان يناظر إسحق فى فن الغناء ، ويأخذ عليه تعصبه للقديم — فإذا حاجه إسحق فى بعض مستحد ثاته قال :

— أنا ملك أغنى كما أشتهى !

وقد بقيت الخصومة بينه وبين إسحق فى عهود الرشيد والأمين والمأمون والمعتصم ، وكان إبرهيم زعيم المجددين ، بينما كان إسحق زعيم المحافظين ، وعرفت طريقة الأول بالغناء الحديث وطريقة الثانى بالغناء القديم .

وكان إسحق الموصلى زعيماً فى فنه وابن زعيم فيه وهو إبرهيم

الموصلى . وقد اختصا بآل العباس . وكان إسحق يكنى « أبا محمد » ثم كناه الرشيد « أبا صفوا : » وأمه أعجمية من أهل الري تدعى « شاهك »[١] وقد درس علوم اللغة والأدب على الكسائى والأصمعى ، وأبى عبيدة وغيرهم ، وكان فن الغناء — على علو مكانه فيه — أقل ميزاته وقد وضع أربعمائة لحن من أجود الألحان .

ومات هرون الرشيد وقام النزاع بين الأمين والمأمون على الخلافة ، فلم يزج إسحق بنفسه فى هذا الخلاف ، بل بقى فى « بغداد » لخدمة الفن والأدب .

غير أن إبرهيم بن المهدى كانت تنازعه ثورة نفسية منذ مات أخوه الرشيد ، فكان يرى أنه أحق بالخلافة من الأمين والمأمون ، وما دام أبو جعفر المنصور تولى الخلافة بعد أخيه أبى العباس ، وما دام الرشيد تولى الخلافة كذلك بعد أخيه الهادى فلماذا لا يتولاها هو بعد أخيه الرشيد ؟ وبأى حق يعهد الرشيد لابنيه بالخلافة من بعده وهما لا يمتازان عنه فى شىء ؟ بل كان يرى أنه يمتاز عهما فى كل شىء — كان يمتاز عنهما فى الأدب واللغة والفن وعلوم الدين ويمتاز عن الأمين بالفقه والرواية والفصاحة ولم يكن مغرقاً مثله فى اللهو مسرفاً فى اللذائذ والشراب . فكان

(١) ولد اسحق فى سنة ١٥٠ﻫ وتوفى سنة ٢٣٥ﻫ فى عهد المتوكل

يتمنى الخلافة ويشعر بثورة فى نفسه من أجلها ، ولكن التمني والكفاية ليستا طريق الملك والسلطان ، بل إن لهما سبلا أخرى . وقد صار لكل من الأمين والمأمون قواد وجنود وأموال ، أما هو فلست له هذه القوى ، فليبتعد حيناً من الزمان وليكبت طموحه عن كل إنسان ، وليخف ثورة نفسه حتى تسنح الفرصة ويحين الأوان .

ودخل عليه نديمه وصديقه محمد بن أمية . وكان كاتباً شاعراً ظريفاً فأخذ يسر إليه ما فى نفسه ، وبينما هما يتساران إذ دخل عليهما أبو العتاهية ، وقد عاد إلى التنسك ولبس الصوف وترك قول الشعر إلا فى الزهد ، فرفعه إبرهيم وسُر به ، وأقبل عليه بوجهه فقال أبو العتاهية :

— أيها الأمير بلغني خبر فتى فى ناحيتك ومن مواليك يعرف بابن أمية يقول الشعر ، وأنشدت له شعراً فأعجبني ، فما فعل ؟ فضحك إبرهيم ، وقال : « لعله أقرب الحاضرين مجلساً منك » ، فالتفت أبو العتاهية إلى ابن أمية ، وقال : « أنت هو؟» فقال « نعم جعلت فداءك » . أما الشعر فإنما أنا شاب أعبث بالبيت والبيتين والثلاثة كما يعبث الشبان . فقال أبو العتاهية « ذاك والله زمان الشعر . وما قيل فيه فهو غرره وعيونه » . ثم التفت إلى إبرهيم بن المهدى ، وقال :

ـــ إن رأى أمير المؤمنين أكرمه الله أن يأمره بإنشادى ما حضره من الشعر .

فقال إبرهيم :

ـــ أنشده يا محمد . . .

فأنشده :

ربَّ وعد منك لا أنساه لى　　أوجبَ الشكر وإن لم تفعلِ

أقطع الدهر بظن حسن　　وأجلى غمرة ما تنجلى

كلما أملت يوماً صالحـــاً　　عرض المكروه لى فى أملى

وأرى الأيام لا تدنى الذى　　أرتجى منك وتدنى أجـــلى

فطرب أبو العتاهية ، وقال إبرهيم : « أحسنت يا بن أمية » وجعل يردد هذه الأبيات !

* * *

وكان الأمين قد تولى الخلافة بعد أبيه ، وكان للمأمون إمارة خراسان وما يليها من شرق الدولة العباسية كعهد الرشيد ، فقد قسم الدولة بينهما عند وفاته إلى قسمين : قسم يليه الأمين وهو العراق والشام وما بعدهما إلى بلاد المغرب ، وقسم يليه المأمون وهو خراسان وسائر بلاد المشرق على أن تكون الخلافة للأمين . ولم يلبث أن وقع الخلاف بينهما ، وطمع كل منهما فى الآخر . وانتهى الأمر بقتل الأمين ببغداد ، والمبايعة بالخلافة للمأمون .

وكان المأمون وقتئذ فى « مرو » فاحدث قتل الأمين أثراً سيئاً فى نفوس بنى العباس خاصة ، ونفوس العرب عامة ، فقد كان أول حادث من نوعه فى الأسرة العباسية ، واعتبره العرب خذلاناً لهم وانتصاراً للفرس أخوال المأمون[1] وأنصاره .

وكان الفرس يتشيعون للعلويين ، وإن كانوا يناصرون العباسيين ، وقد تربى « المأمون » فيهم ونشأ على احترام العلويين وحبهم خلافاً لأسلافه . ولما تولى الخلافة زاد فى احترامهم وتقريبهم ، واتخذ إمامهم « على بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق العلوى » زوجاً لابنته « أم حبيب » وكان يحبه ويقدمه لتقواه وورعه ، وقد سماه « الرضا من آل محمد » ثم بايع له بولاية العهد من بعده دون ابنه العباس ، وكان لوزيره الشيعى الفضل بن سهل دور أصيل فى هذه المبايعة [2] وبلغت انباؤها بنى العباس بالعراق ، وشيعتهم من العرب ، فهالهم الأمر لأن

(١) كانت أم المأمون فارسية تدعى مراجل ، وقد ولد المأمون سنة ١٧٠ هـ وبويع بالخلافة بعد مقتل الأمين سنة ١٩٨ هـ وتوفى سنة ٢١٨ . وكان ربعة أبيض طويل القامة واللحية واسع العينين (أعين) بخده خال اسود ، وكان أديبا شاعراً فقيها ، متأثرا بأستاذه ومربيه الفضل ابن سهل الذى أصبح كبير وزرائه ، وقد استوزر بعده أخاه الحسن بن سهل واستوزر عمرو بن مسعده ، وأحمد بن أبى خالد الأحول

(٢) بايع المأمون لعلى بن موسى بولاية العهد سنة ٢٠١ هـ .

الخلافة بذلك ستنتقل إلى العلويين .

وكان إبرهيم بن المهدى وقتئذ كبير آل العباس ببغداد ، فخرج من عزلته الفنية إلى السياسة ، واضطربت الحال فى بغداد ، وكان يتنازع العباسيين عاملان : عامل الولاء للخليفة الجديد ؛ وعامل الثورة عليه خصوصاً بعد ما وصلهم أن المأمون قد أبدل بالملابس السوداء « شعار العباسيين » الملابس الخضراء « شعار العلويين » وأحرق الأولى فى ملأ من الناس !

إذن كانت الفرصة سانحة لإبرهيم ليحقق آماله فى الخلافة ويطلق ما فى نفسه من طموح إلى الملك والسلطان . وإذن فليدع الفن فترة من الزمان ، أو إلى آخر الزمان إذا صحت الأحلام !

فى الحانة

لم تفقد بغداد فى ظلام هذه الفتنة شيئاً من نورها وجمال العيش فيها ، وطيب الحياة بين أبنائها ، فقد كانت هذه الأحداث تمر بها دون أن يعصف بها عاصف شديد . إذ كان النضال مقصوراً على رجال السياسة ، وأطماعهم فى النفوذ والجاه والسلطان . وكانت بغداد عروس الشرق وعاصمة الحضارة ، وزعيمة البلدان ، وكانت الأموال تنصب فيها انصباباً ، فكثرت

فيها مجالس الأنس والأدب والطرب .

وجلس جماعة من الأدباء والمغنين فى حانة لرجل رومى فى طرف من أطراف المدينة ، وكانت تحيط بالحانة أغراس وبساتين ، وفى جدرانها كوى كالجيوب فيها دنان الخمر ، وفوق الكوى رفوف عليها أباريق وأقداح من الزجاج والخشب وفى صدر الحانة بعض المعازف والأعواد والآلات وأخذ هؤلاء الأدباء والمغنون يتسامرون ويحتسون كؤوس الخمر ، يدور بها السقاة من الغلمان الحسان .

وكان بينهم الحسين بن الضحاك[1] ، وعمرو بن الوراق ، شاعرا الأمين ودعبل بن على الخزاعى [2] ، وأبو دلف قاسم العجلى أحد الشعراء والفرسان وأمراء العرب فى ذلك العصر . وعقيد وعلوية وزلزل من المغنين وابن نهيك من قواد الجند العباسى . وكان البعض يلعب النرد والبعض يلعب الشطرنج ، والبعض الآخر يشرب ويتحدث . فقال ابن الضحاك لصديقه عمرو بن الوراق :

---

(١) كان الحسين بن الضحاك ، وعمرو بن الوراق شاعرى الأمين وكان أبو نواس معهما ولكنه مات قبل مقتل الأمين وكان ابن الضحاك من شعراء الطبقة الأولى وقد عاش إلى سنة ٢٥٠ هـ

(٢) من خزاعة اليمن وكان من كبار الشعراء وقد مات سنة ٢٤٦هـ

— هيه يا عمرو ... رحم الله الأمين ، وأيام الأمين ، وسلام على مجالس أنسه ، ومطالع سعده .. أين ليالى قصر الخلد والرصافة وأين المباهج والسرور فى حدائق المنصور ، والدهر ساج ساكن ، والعيش ناعم باسم ؟ ! ... فقال عمرو :

— أجل يا بن الضحاك ، وأين فتنة البساتين ، والحور العين ، وملاعب الفرسان ، ومغانى القيان ، وبدائع الحراقات(١) والجوارى المنشآت تخطر فوق دجلة والفرات فى فخامتها النادرة ، وزينتها الساحرة ... أين سفينة « الأسد » تفتك بالعباب والزبد ، وأين « العقاب » تسبق فى سيرها السحاب ، وأين سفينة « الفيل » فى حجمها الضخم ورواثها الجميل ، وأين « الدلفين » سيدة البحار ، ومليكة السفين ؟!

قال ابن الضحاك :

— وأين ما كان لنا من صحاب فى مجالس الأنس والشراب ، وأنعم بعهد الأمين ، عهد الهوى والشباب .

فقال عمرو :

— ما زلت — والله يا بن الضحاك — أتمثل جمال هذا العهد

---

(١) الحراقة بتشديد الراء اسم سفينة عندهم كان بها مرامى نيران يرمى بها الأعداء ، وكان للأمين عدة حراقات بأسماء بعض الحيوان كالأسد والعقاب والفيل والدلفين

كلما ذكرت أبا نواس وهو ينشد الأمين على إحدى تلك الحراقات ، ونحن نأنس بالرياضة معه على مياه دجلة فى شباب الربيع ، والأمين فرح طروب :

سخر الله للأمين المطايا لم تسخر لصاحب المحراب
فإذا ما ركابه سرن برا سار فى الماء راكباً ليث غاب
« أسداً » باسطاً ذراعيه يهوى أهوب الشدق كالح الأنياب
لا يعانيه باللجام ولا السو ط ولا غمز رجله بالركاب
عجب الناس إذ رأوك على صو رة ليث تمر مر السحاب
سبحوا إذ رأوك سرت عليه كيف لو أبصروك فوق العقاب
ذات زور[1] ومنسر وجناحيـن تشق العباب بعد العباب
تسبق الطير فى السماء إذا ما استعجلوها بجيئة وذهاب
بارك الله للأمين وأبقا ه وأبقى له رداء الشباب

قال الحسين بن الضحاك :

– أسفاً فقد ذهب الأمين وشباب الأمين .

ابن الوراق :

ذهبت بهجة بغدا د ، وكانت ذات بهجة
فلها فى كل يوم رجة من بعد رجة

ابن الضحاك :

(١) الزور ملتقى أطراف عظام الصدر ومنه (فرس عريض الزور)

لا يرجع الماضى إلى الـــباقى   طول   الأبد
هيهات   لا تبصر مـ   ن قد مضى من أحد

وما كادا يصلان إلى ذلك حتى ترك « دعبل بن على » لعبة الشطرنج وكان يلعبها مع زلزل وقال :

ـــ ما هذه الذكريات لأمور عفى عليها الزمان.. هونا عليكما خليفة أتى وخليفة ذهب ، وما يبالى الناس فالدنيا لمن غلب

فقال زلزل :

رب ركب قد أناخوا عندنا   يشربون الخمر بالماء الزلال
عصف الدهر بهم فانقرضوا   وكذاك الدهر حالا بعد حال

فقال علويه :

ـــ صدقت ، وصدق والله عدى بن زيد ، دعونا من الخلافة والخلفاء وحدثونا من أخبار العشاق والأدباء .

قال دعبل :

ـــ إنى محدثكم عن حادث ظريف وقع لى مع صريع الغوانى مسلم بن الوليد قاتله الله . . .

كنت ماراً بباب الكرخ(١)، فاحتوى الفكر على قلبي ، وأخذتنى نشوة ، فقلت شيئاً من الشعر ما وعيته من قبل . وهو :

دموع عينى لها انبساط   ونوم عينى به انقباضُ

(١) محلة ببغداد وكرخ الماء ساقه كرخا والكارخ الذى يسوق الماء

فإذا أنا بجارية رائعة ، لها وجه زاهر ، ومطلع باهر ، وهى تسمع هذا البيت ، فاعترضتنى وقالت :

هذا قليل لمن دهته بلحظها الأعين المراضُ

فأجبتها :

فهل لمولاى عطف قلب فالود فى ديننا قراضُ (١)

ثم شعرت كأنى أخاطب حورية هبطت من الجنة ، فقد كانت تقطع الأنفاس بعذوبة ألفاظها ، وتختلس الأرواح ببراعة منطقها وتذهل الألباب برخيم نغمها ، مع رشاقة قدٍّ واعتدال ، فحار والله البصر فيها ، وتلجلج اللسان ، ثم ثاب لى عقلى وراجعتنى شجاعتى ، فقلت :

أترى الزمان يسرنا بتلاقى ويضم مشتاقاً إلى مشتاق

فأجابت :

ما للزمان يقال فيــه وإنما أنت الزمان فسرنا بتلاقى

ثم سرت وتبعتنى — وذلك فى أيام إملاقى — فقلت ما لى إلا منزل مسلم بن الوليد ، فسرت بها إلى بابه ، فخرج ، فقلت له : « أكمل الخير معى . وجه صبيح يعدل الدنيا بما فيها ، وقد وقع بى ضيق وعسر » فقال : « والله لا أملك غير هذا المنديل » فقلت « هو البغية » وتناولته . فقال : « خذه فاشتر لنا بثمنه

(١) قراض بكسر القاف من قارضه بمعنى جازاه ، وقابل الشىء بمثله

شيئاً » فتركت الجارية عنده ، وذهبت فبعته واشتريت لحماً وخبزاً ونبيذاً ، وصرت إليه فوجدتها تتساقط معه حديثاً كأنه الزهر الممطور . فقال « ما صنعت ؟ » فأخبرته ، قال : « كيف يصلح طعام وشراب وجلوس مع وجه جميل بلا ريحان وطيب . اذهب فأحضر لنا شيئاً من ذلك » وأخرج نصف دينار . فأخذته وذهبت ، ثم عدت إليهما فوجدت باب الدار مفتوحاً وليس لهما من أثر . . . !

فضحك علويه وصاحباه ، وقالوا :

ـــ والله إنك لأحمق البشر . . !

وقهقهوا قهقهة عالية ملأت الحانة وأغرقوا فى الضحك !.

* * *

وهنا دخل أبو المهنأ مخارق المغنى وهو يترنم بهذه الأبيات :

يا حانة الشط قد أكرمت مثوانا

عودى بيوم سرور كالذى كانا

لا تفقدينا دعابات الحياة ولا

طيب البطالة إسراراً وإعلانا

سقياً لحسنك من حسن خصصت به

دون الدساكر من لذات دنيانا

حفت رياضك جنات مجـــاورة
— فى كل مخترق — نهراً وبستانا
لا زلت آهـــلة الأوطان عامرة
بأكرم الناس أعراقاً وأغصاناً

فقال زلزل المغنى :

— مرحباً أبا المهنأ . اجلس وزدنا من أنسك ولطفك

ونادى زلزل الساقى فناول مخارقاً كأساً فشربها وهو يقول :

يومنـــا يوم رذاذ واصطباح والتـــذاذ
ليس للمرء من الدنيـــــا سواها من ملاذ

فسمعه أبو دلف قاسم العجلى ، فنفر قائلا : كلا . . كلا . . فإن فى الدنيا ألذ منها .

لسلُّ السيوف وشقُّ الصفوف ونقض التراب وضرب القللْ
ولبس العجاجة[1] والخانقا ت تريك المنايا برأس الجبلْ
ألذ وأشهى من المسمعا ت وشرب المدامة فى يوم ظلْ

« فهذه والله لذتى . وإن استلذ أحد شيئاً من المعاقرة ملت إلى المقاومة والمبادرة ، ولا استلذ غيرهما »

فضحك دعبل فى تهكم ، وقال :

---

(١) العجاجة واحدة العجاج وهو الغبار ، ولبس العجاجة كناية عن الإغارة والحرب

ـ ما صدقت والله يا قاسم . . . وإذا كانت لذة الحرب لذتك وخوض المنايا غرامك ، فلماذا قلت :

بنفسي يا جنان وأنت مني مكان الروح من جسد الجبان
ولو أني أقول مكان نفسي خشيت عليك بادرة الزمان

فقال أبو دلف :

ـ ذلك كان في متقدم العمر وأيام الصبا وهل أنا أحسن ممن قال :

أذم لك الأيام في ذات بيننا وما لليالي في الذي بيننا عذر

فقال عقيد المغني :

ـ لمن هذا البيت الجميل ؟

أجاب أبو دلف :

ـ سمعته من المأمون في مجلس ضمنا للشعر والغناء

قال عقيد !

ـ كلام الملوك ، ملك الكلام ، ورائحة المسك تنم عليه . . . ،

فاعترض الحسين بن الضحاك ، وقال :

ـ ألم تقولوا دعونا من الخلافة والخلفاء ؟ !

فقال دعبل : ويحك يا حسين . . . الدنيا دول . . .

فاخط مع الدهر إذا ما خطا واجر مع الدهر كما يجري

ابن الضحاك :

— كلا . . . كلا . . . لا أم لى إن بقيت فى بغداد بعد مقتل أمير المؤمنين الأمين . هيا بنا يا عمرو .

عمرو بن الوراق :

ولست بتارك بغـداد يوماً ترحَّـل من ترحَّـل أو أقاما
إذا ما العيش ساعدنا فلسنا نبالى بعد من كان الإماما

وخرج الحسين بن الضحاك — وقد اعتزم أن يغادر بغداد — وترك أصحابه وهم يلهون . . . .

الفصل الثالث

الثورة

كان إسحق الموصلى يعقد مجالس الغناء والأدب والمناظرة فى قصره . وكان قصراً بديعاً يعيش فيه عيشة الأمراء والعظماء مما أفاء الله عليه وعلى أبيه إبرهيم الموصلى من عطايا هرون الرشيد . وقد كان يقول « لو بقى لنا الرشيد لبنينا جدران بيوتنا بالذهب والفضة » .

وكان أكثر ما يكون الحديث عنده عن إبرهيم بن المهدى ومستحدثاته ومبتكراته فى الغناء والموسيقى ، وكان ينكر عليه إسحق وينتقده انتقاداً مراً .

وزاره أبو دلف قاسم العجلى، ومخارق، وعمرو بن الوراق، مع جمع من الأصدقاء وجلسوا يشربون ويتحدثون .

وكانت بغداد فى هذه الآونة قد زخرت بأنباء المأمون واحراقه الملابس السوداء « شعار العباسيين » والاستبدال بها الملابس الخضراء « شعار العلويين » وما كان من مبايعته بولاية العهد من بعده لعلى بن موسى الرضا زعيمهم ، مما أحدث ثورة

فى نفوس بنى العباس والعرب ببغداد والعراق .

وأخذت الفتنة تزحف من القصور إلى الدور ، ومن صدور الخاصة إلى أفواه العامة .

وجلس الأدباء والمغنون فى قصر إسحق الموصلى يتذاكرون ويتشاورون ويروى بعضهم لبعض ما سمعه من أنباء المأمون وشيعة العلويين فى « مرو » وخراسان .

فقال أبو دلف :

— وهل استشار المأمون الفقهاء فيما فعل واستحدث من هذا الأمر ؟

فقهقه عمرو بن الوراق ، وقال :

— أجل . . . أجل . . . إنى محدثكم ما سمعته من صديق جاء من « مرو » منذ أيام ، فقد روى أنه لما اعتزم المأمون تولية على بن موسى الرضا عهد الخلافة ، خلع الملابس السوداء ، جمع فقهاء المدينة عنده وأخذ يسألهم رأيهم ، فكان والله كلما قال قولا قال الفقهاء .

« كلنا نقول بقول أمير المؤمنين ، وكلنا نرى رأى أمير المؤمنين » حتى لو كان قد قال لهم إن الوحى نزل على أبى نواس لقالوا : « كلنا نقول بقول أمير المؤمنين ، وكلنا نرى رأى أمير المؤمنين » . . !

فضحك جميع الحاضرين وقهقهوا قهقهة عالية وقال إسحق الموصلى :

اتق الله يا عمرو ... اتق الله ... ودع عنك هذا التشنيع ..!

قال عمرو :

— والله ما حدثتكم كذباً ، ولا رويت لكم إلا ما سمعت من شاهد صادق . . .

فقال أبو دلف :

— سمعت الناس فى بغداد يتحدثون عن خلع المأمون ، والنداء بغيره خليفة للمسلمين ، فمن يكون يا ترى يصلح للخلافة من بعده ، ومن يا ترى يكون أمير المؤمنين الجديد ؟ ! . .

قال إسحق الموصلى :

— وهل بعد المأمون من رجل رشيد يصلح لخلافة المسلمين ؟

فقال مخارق :

— إبرهيم بن المهدى ، فهو أكبر أمراء العباس ! . .

فصاح دعبل :

إن كان إبرهيم مضطلعاً بها ... فلتصلحن من بعده لمخارق

ولتصلحن من بعد ذاك لزلزل ... ولتصلحن من بعده للمارق

قال إسحق :

— صدقت يا دعبل صدقت وويل للخلافة يتقلدها مغن .

مخارق :

— ما أصبت والله أبا محمد ... وأى بأس فى أن يتولى إبرهيم الخلافة . . . أليس هو ابن الخليفة المهدى ، وأخا الخليفة هرون الرشيد وعم الخليفة المأمون ، ثم أليس هو من تعرف علماً وأدباً ونبلا وفضلا وملكاً للغناء والموسيقى ؟

اسحاق :

— سبحان الله! تقول أى بأس أن يتولى مغن الخلافة ؟ إنى لا أرضى لنفسى أن أوصف بالغناء . ووددت أن أضرب كلما أراد مريد منى أن أغنى ، أو كلما قال قائل « إسحق الموصلى المغنى » وتمنيت بدل هذا أن أقرع عشر مقارع لا أطيق غيرها ولو أطقت أكثر منها لفضلتها على هذا الوصف . . . فكيف أرضى أن يكون الخليفة مغنياً . . . ؟

مخارق فى دهشة :

— كيف هذا يا إسحق أتضع من شأن الغناء ؟ والله ما بلغت ما بلغته إلا به ، ولا احترمك الناس إلا لأجله ، ولا قدمك الخلفاء إلا بما صححت أجناسه ، وميزت طرائقه ، وما كان لك فيه من ألحان شتى ، فكيف تحط من قدره الآن وقدر أهله ؟ !

إسحق :

— لقد أفسد إبرهيم المهدى الغناء ، فكيف أنسب نفسى

إليه بعد . . . ولو أنه تولى الخلافة لأفسدها .

مخارق :

ــ ويحك ثم ويحك أبا محمد . . . كيف ذلك ، والله لقد سمعت أباك إبرهيم الموصلى يقول :

« لو طلب إبرهيم بن المهدى بالغناء ما نطلب ، لما أكلنا خبزاً أبداً » ، ثم لقد شهدت أنت له بالفضل ، فقلت :

« ما ولد العباس بن عبد المطلب بعد عبدالله بن العباس رجلا أفضل من إبرهيم بن المهدى » ثم أنت تعيبه وتقول فيه ما تقول الآن ؟ . . !

إسحق :

ــ لأنه تغير ، فتغيرنا . . .

مخارق :

ــ عجباً . . . إذا تغيرت النفوس تغيرت الآراء فى الرءوس. لقد كنت تشهد بكفايته وتعترف له فى فنه بالدراية والرواية .

إسحق :

ــ دعنى . . . دعنى أبا المهنأ فوالله ليست له دراية ولا رواية ولا كفاية ، لقد عابنا فى صناعتنا ، وأحدث فيها وخرج علينا ، وثار على قواعدنا . وإنى لأخشى أن يحدث بين المسلمين حدثا فى دينهم كما أحدث بيننا أحداثاً فى دنيانا . . . وإنى

أبغض صلفه وكبرياءه ، وما طبع عليه من ثورة وفتون .

اسمعوا : كنت عند هرون الرشيد يوماً فى مجلس مؤنس ، وكان عنده إبرهيم ، فقال لى الرشيد :

— غن يا إسحق . . .

فغنيت :

« أعاذلُ قد نهيتَ فما انتهيتُ
وقد طال العتاب فما ارعويتُ » .

فأقبل إبرهيم ، وقال لى أمام الرشيد : « ما أصبت يا إسحق ولا أحسنت » فقلت له :

— ليس هذا مما تحسنه ولا تعرفه ، وإن شئت فغنه ، فإن لم أجد أنك تخطىء فيه منذ ابتدائك إلى انتهائك فدمى حلال » !

ثم قلت للرشيد :

— يا أمير المومنين هذه صناعتى وصناعة أبى ، وهى التى قربتنا منك ، واستخدمتنا لك ، وأوطأتنا بساطك فإذا نازعنا إياها منازع بلا علم لم نجد بدأً من الإيضاح » !

فقال الرشيد : « لا غرو ، ولا لوم عليك يا إسحق » ثم قام الرشيد من المجلس لبعض شأنه ، فقال لى إبرهيم : « ويلك يا إسحق تجترىء على يا بن الفاعلة ، وتقول ما قلت ! »

فقلت له : « وأنت الآن تشتمنى ، وأنا لا أقدر على إجابتك

وأنت ابن الخليفة ، وأخو الخليفة ، ولولا ذلك لكنت قلت لك مثل ما قلت : أترى أنى لا أحسن أن أقول لك يا بن الفاعلة مثنى وثلاث ورباع . . . ولكن قولى هذا ينصرف إلى خالك الأعلم . . . ولولاك لذكرت صناعته ومذهبه »

وكان خاله كما تعلمون بيطاراً يعالج نعال الدواب ، ثم قلت له :

« أنت تظن أن الخلافة تصير إليك يوماً ما ، فلا تزال تهددنى بذلك ، وتعادينى كما تعادى سائر أولياء أخيك الرشيد حسداً له ولولده ، وتستخف بأوليائه تشفياً ، وإنى أرجو الله ألا يخرج الخلافة من يد الرشيد وولده ، فإن صارت إليك — والعياذ بالله — فحرام على العيش يومئذ ، والموت أطيب من الحياة معك » !

قال إسحق :

« وهنا عاد الرشيد ، فوثب إبرهيم بين يديه يقول « يا أمير المؤمنين شتمنى إسحق ، وذكر خالى وأمى واستخف بى » . فتغير وجه الرشيد ، وقال لى : « ويلك . . . ما تقول ؟ » فقلت : « سل من حضر » فأقبل على خادمه مسرور وسأله عما حدث ، فجعل مسرور يخبره فكان وجهه يربدّ ثم يربدّ إلى أن انتهى إلى

ذكر الخلافة ، فسرى عن الرشيد ، ورجع لونه والتفت إلى إبرهيم وقال له :

« لا ذنب له . . شتمته ، فعرفك أنه لا يقدر على جوابك . ارجع إلى موضعك ، وأمسك عن هذا ، وإياك أن تعود إليه » !

فقام إبرهيم منصرفاً ، ولما انقضى المجلس أمر الرشيد ألا أخرج فساء ظنى ، وأهمتنى نفسى ، ثم أقبل على وقال لى أمام بعض الخدم : « ويلك يا إسحق أترانى لم أفهم قولك ومرادك ، قد والله شتمته ثلاث مرات . . . ويلك لا تعد . . . أخبرنى لو ضربك إبرهيم أكنت أقتص لك منه ، فأضربه وهو أخى يا جاهل . . . أم ترى لو أمر غلمانه فقتلوك ، أكنت أقتله بك ؟ ، » !

فقلت للرشيد :

« قد والله قتلتنى يا أمير المؤمنين بهذا الكلام ، ولئن بلغه ليقتلنى ، وما أشك أنه سيبلغه ! »

فصاح الرشيد بمسرور الخادم ، وقال :

— على بإبرهيم الساعة .

فأحضره . وقال لى الرشيد « قم يا إسحق فانصرف » فقلت لجماعة من الخدم ، وكلهم كان لى محباً « أخبرونى بما يجرى »

فأخبروني أنه لما جلس إبرهيم بين يدى الرشيد، وبخه وجهّله ، وقال له : « أتستخف بخادمى وصنيعتى ، ونديمى وابن نديمى فى مجلسى . . . هاه . . . هاه . . . أتجترىء على هذا وأمثاله بحضرتى . . . وأنت مالك وللغناء حتى تتوهم أنك تبلغ مبلغ إسحق ، ثم تظن أنك تخطئه فيما لا تدريه . . . ألا تعلم ويلك أن هذا سوء أدب وقلة معرفة وعدم مبالاة ! والله العظيم والله العظيم وحق رسول الله ، وإلا أنا لست للمهدى لئن أصابه أحد بسوء ، أو سقط عليه حجر من السماء ، أو سقط من دابته فمات أو سقط عليه سقف أو جدار ، أو مات فجأة ، لأقتلنك . قم الآن ، فانصرف . . . ! »

فخرج إبرهيم يتعثر وهو يكاد يموت . . . !

* * *

سمعت الجماعة من إسحق هذه القصة ، وكانت بغداد وقتئذ تضطرب بالفتنة ، وكان بنو العباس ينادون بإبرهيم بن المهدى خليفة للمسلين ، وأميراً للمؤمنين ويبايعون له ، ويخلعون المأمون ، لأنه خرج على سنة آبائه وشعارهم وسياستهم فى الملك والسلطان بما أتاحه للعلويين من نفوذ .

ودخل « بديح » غلام إسحق ينبئه أن الناس نادوا لإبرهيم ولقبوه « إبرهيم المبارك » و « أمير المؤمنين » وما كاد ينتهى من

كلامه حتى سمع إسحق وضيوفه النداء بخلافة إبرهيم على مآذن بغداد وفى أسواقها ، فقال علويه :

ــ ما رأيك أبا محمد . لقد استعذت بالله من أن يصبح إبرهيم خليفة ، وها هوذا قد واتته الخلافة ، فماذا أنت صانع ؟

إسحق :

ــ لا عيش لى فى بغداد ، والموت أهون على من هذا . . .

مخارق :

ــ والله لم أر أفصح لساناً، ولا أحسن بياناً، ولا أجود شعراً ولا أسد رأياً ، ولا أبلغ فى التصرف فى الفقه وسائر الآداب الرفيعة من إبرهيم بن المهدى .

إسحق :

ــ أنفاق وتملق يا مخارق ، ولما تمض على مبايعته ساعة ..؟ !

ثم نهض إسحق ونهض الحاضرون ، فخرجوا واستبقى منهم علوية ، فأفضى إليه أنه راحل عن بغداد اليوم وأنه يوصى له بأمر أولاده وشئونه ، حتى يقضى الله أمراً كان مفعولا ، فسأله علويه :

ــ إلى أين أبا محمد ؟

قال إسحق :

ــ إلى خراسان ، إلى مرو ، إلى المأمون ، فإنه مولاى وابن مولاى وهو بى أولى .

* * *

خرج إسحق متنكراً فى زى أعرابى ، وقد حلق لحيته ، وكانت بغداد تهتز بالدعاء لإبرهيم ومبايعته والهتاف له وتزدحم بمواكب الهاتفين وهم ينادون :

« إبرهيم . . . إبرهيم أمير المؤمنين .. لا طاعة للمأمون .. لا طاعة للمأمون . . . »

ثم ينشدون :

يا بنى العباس أنتم شفا ء وضياء للقلوب ونور
أنتمو أهلُ الخلافة فينا ولكم منبرها والسرير
لا يزال الملك فيكم مدى الدهـر مقيماً ما أقام ثبير
وأبو إسحق[1] خير إمام ما له فى العالمين نظير
واضح الغرة للخير فيه حين يبدو شاهد وبشير
زانه الله بعز وجلال وجمال ووقار وخير

وشايعت بغداد الخليفة الجديد ، وأقام بنو العباس فى قصر الخلد — قصر الخلافة — حفلا فاخراً له رقصت فيه الجوارى الحسان ، وغنت فيه « خالدة » بشعر جرير :

إنا لنرجو إذا ماالغيث أخلفنا من الخليفة ما نرجو من لمطر
نال الخلافة إذ كانت له قدراً كما أتى ربه موسى على قدر

---

(١) أبو إسحق كنية إبراهيم بن المهدى

إبرهيم المبارك

بلغت أنباء هذه الفتنة المأمون فى « مرو » فاشتد عليه وتمثل له خطرها إن لم يسرع فى إخمادها قبل أن تستفحل فى دولته ، وتذهب بملكه ، وأيقن أنه قد تجاوز الحكمة فى التدبير وغفل عن السداد فى الرأى والتقدير ، فما كان ينبغى له أن يقدم على ما أقدم عليه فأغضب بنى العباس وأثار العراق ، ولم يكن من الكياسة أن يتسرع فى تنفيذ رأى رآه قبل أن ينضجه التفكير الطويل .

رأى أن يعهد بولاية العهد لعلى بن موسى الكاظم لأنه فى زمنه خير أبناء هاشم جميعاً ، ولم يجد أفضل منه يصلح للخلافة من بعده ، ولعله كان ينظر فى ذلك إلى مصلحة المسلمين وحدها ، ولعله كان متأثراً باحترامه للعلويين منذ تربى فى شيعتهم ، بل من المؤكد أن مربيه الفضل بن سهل كان أكبر المؤثرين عليه فى هذه الناحية ، وأول المحبذين لهذا العمل ، إذ كان علوياً يخفى تشيعه كما كان البرامكة يفعلون .

ونظر المأمون فى أولاد العباس وكان عددهم وقتئذ ثلاثة

وثلاثين ألفاً ، فلم يجد بينهم من يصلح للخلافة إذا قورنوا بعلى بن موسى الرضا علماً وتقى وديناً وقد ولد على سنة ١٥٣ وهو ابن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب وكان هو أحد أئمة الشيعة الاثنى عشر .

ولى المأمون علياً العهد من بعده ، ولم يكن يتوقع أن يثور عليه الناس فى العراق ، بل لعله كان يتوقع ، ولكنه لم يخش الثورة ولم يحفل بها وقد دان له المشرق والمغرب وأصبح لا ينازعه فى السلطان منازع !

* * *

ثار العراق وقاد الثورة بنو العباس فى بغداد ، ونصبوا عمه إبرهيم ابن المهدى خليفة للمسلمين ، فرأى المأمون أن يعالج الحال بأحد أمرين : الأول أن يرسل جيشاً لإخضاع إبرهيم وخلعه من الخلافة ، والثانى أن يخلع على بن موسى من ولاية العهد فيرضى بنى العباس ويرضى العرب .

ولكن العلاج الثانى قد يثير الفرس فى خراسان وهم أنصار هذه البيعة لعلى ، فلا بد من طريقة أخرى لا تثير الفريقين ورأى المأمون أولا أن يخضع إبرهيم بن المهدى ، فجند جيشاً

كبيراً بقيادة الحسن بن سهل وأمره أن يذهب إلى بغداد ويأتى بإبرهيم حياً أو ميتاً . . . !

وكان إبرهيم قد جمع الجموع ، وألف جيشين أحدهما بقيادة عيسى بن أبى خالد أحد القواد السابقين للمأمون ، والثانى بقيادة إبرهيم بن عائشة وخرج الجيشان فقابلا جيش الحسن بالقرب من بغداد ، ودارت رحى القتال ، فانهزم الحسن ، وفر بمن معه إلى « سمر » فطارداه حتى خرج إلى خراسان . . .

* * *

كتب النصر فى أول الأمر لإبرهيم بن المهدى على المأمون وكان نصراً مبيناً زاد من إقبال الناس عليه ومبايعتهم له ، وجلس إبرهيم على أريكة الرشيد ودعى « إبرهيم المبارك » وسكن قصر الخلد ببغداد وتبوأ عرش آل العباس ، وكان العرش من الذهب الخالص المرصع بالجواهر النفيسة ، ووراءه حارسان بيد كل منهما سيف مسلول ، وقد نصب العرش فى صدر القاعة فوق سدة قائمة على أعمدة صغيرة من الأبنوس المنزل فيه العاج ، وسقفها من الديباج الأسود المزركش برسوم فنية جميلة من الذهب وازدانت حاشيتها من الأمام والجانبين بأهلة مدلاة فيها ورد ونجوم من الياقوت الأحمر والأصفر على نظام بديع وقد لبس ابرهيم حلة الخلافة التى كان يلبسها الرشيد ، وهى

مؤلفة من ملابس سوداء وطيلسان أسود وقلنسوة قصيرة حولها عمامة سوداء من الحرير الموشى . وبين ثنايا العمامة عقود صغيرة من الجواهر . وفي مقدمتها طرة من أسلاك الذهب على هيئة عرف الطاووس .

ودخل عليه أخوه المنصور بن المهدى وابن أخيه صالح بن الرشيد ، وابناه : هبة الله[1] ، وبقية الله ، وبعض أمراء بنى العباس ، فجلسوا عن يمينه ، ودخل عيسى بن أبي خالد قائد العسكر وبعض رجال الدولة الآخرين ، فجلسوا عن يساره ، وسأل إبرهيم أخاه المنصور :

— ما حال أعمامنا بالكوفة يا منصور ، هل أجابوا إلى البيعة لنا وخلع المأمون ؟

قال المنصور :

— نعم يا أمير المؤمنين وقد وعدوا أن يحضروا غداً إلى بغداد

فقال إبرهيم :

— حمداً لله على ما أنعم

ثم التفت إلى عيسى بن أبي خالد ، وقال :

— وكيف حال القوم يا عيسى ؟

عيسى :

---

(١) كان لإبرهيم بن المهدى ولدان هما « هبة الله » و « بقية الله »

— إن أهل بغداد والعراق يدينون لك بالطاعة ، وقد كشف الله عدوك ، فإن أنت قويت هذا الأمر ، حفظت تراث آبائك ، ولم تملكه العلويين وشيعتهم من الفرس ، واحتفظت بمجد العرب .

فقال إبرهيم :

— لن يضيع هذا الأمر من يدى إن شاء الله !

ودخل إبرهيم بن عائشة فسلم وجلس خاشعاً مطرقاً، فقال له إبرهيم بن المهدى :

— أحسنت أبا على . . فتح الله عليك ونصر الحق على يدك ،

فأجاب ابن عائشة :

— هذا من فضل الله وعون أمير المؤمنين .

فقال إبرهيم :

— وأين إسحق الموصلى ؟ . . بعثت إليك أن أغلق فى وجهه السبل فلا تدعه يفر من العراق ! !

ابن عائشة :

— قاتله الله ! لقد فر يا أمير المومنين ونحن مشغولون عنه بالحسن بن سهل ، وقد تزيا بزى أعرابى وما عرفته الشرطة .

فقال إبرهيم بن المهدى فى غيظ :

— ويل لهذا المارق! ! يقول عني ويل للخلافة يتقلدها إبرهيم كأنما لست أهلا لها ... والله أنى لأحق بالخلافة بعد أخى الرشيد من الأمين والمأمون !

قاتله الله ! إنه خصم لدود حقود . لقد استعاذ بالله أن أكون حيث أنا الآن، ولكن الله خيب رجاءه ، وكان يعيبنى بالغناء وهو يعلم أنى فى العلم مناظر ، وفى الغناء متلذذ وأنى ملك وابن ملك ! . .

فقال عيسى بن أبى خالد :

— والله يا أمير المومنين إن سيفى لظمآن إلى هذا المارق ووددت لو رأيته فأقتله أينما كان . . !

* * *

ودخل الحاجب فقطع كلام عيسى بقوله :

— رسول يا مولاى جاء من عبدالله المأمون . . .

فأذن له إبرهيم فدخل وركع وسلم ، ثم قدم له كتاباً من المأمون فتناوله وفضه فإذا فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من أمير المؤمنين عبدالله المأمون . السلام على أبى إسحق إبرهيم بن المهدى ورحمة الله .

« أما بعد، فقد علمت أمر خروجك علينا ، وادعاءك لنفسك الخلافة متجاوزاً فى ذلك حد الله فيما أعطيته من العهود والمواثيق

أمام أمير المؤمنين الرشيد فى البيعة لولده من بعده . وقد كنت عذرتك حين علمت بغضبك لمبايعتى لعلى بن موسى الرضا بولاية العهد ، وعذرت بنى العباس فى ذلك ، وقد شاء الله ولا راد لمشيئته أن يضع بيننا الخصومة فى هذا الأمر ، فاختار علينا رضى الله عنه إلى جواره وانتقل إلى جنة الخلد راضياً مرضياً .

«فأنا أدعوك ومن معك إلى الطاعة ، وعلىَّ عهد الله أن أعطيك الأمان وسيكون لك من عفوى وقربى ما أنت به أهل إن شاء الله»

قرأ إبرهيم هذا الخطاب . . . وعجب لموت على بن موسى الرضا فى هذا الأوان ، وسأل الرسول :

— أو هل مات حقاً على بن موسى ؟

قال الرسول :

— إنه مات بطوس فجأة . . . !

— فجأة . . وكيف كان ذلك ؟

— خرج المأمون يوماً من مرو إلى مدينة طوس لزيارة قبر الرشيد ، ودعا علياً للزيارة معه ، فلبى دعوته ، وأقاما يومين فى هذه المدينة ، وبينما كانا يأكلان جاء الغلام بطبق من العنب فأكل على منه كثيراً فمات . . !

— وهل مات من العنب ؟

— بلى قد مات . . .

فقال أحد الحاضرين :

ــ والله يا أمير المومنين ما مات على بن موسى إلا مسموماً !

فقال صالح بن الرشيد :

ــ عجباً . كان المأمون يحب علياً ويحترمه ويجله . . ،

فسكت إبرهيم بن المهدى ساعة . وكأنما كان يفكر فى هذا الحادث وكيف أن السياسة وأطماع الملك والسلطان لا قلب لها ولا نبل فيها ، إلا لمن عصم الله ، وهم قليل من قليل . ثم التفت إلى رسول المأمون وقال :

ــ بلغ مولاك أنى قرأت كتابه ولكل كتاب جواب . . . !

* * *

انصرف الرسول والتفت إبرهيم إلى من حوله وقال :

ــ ماذا تقولون فى كتاب المأمون ؟

ــ إنه خداع ، وما نظنه صادقاً فى قوله يا أمير المؤمنين

إبرهيم :

ــ صدقتم

ثم التفت إلى ابنه « هبةالله » وأملى عليه الكتاب الآتى إلى المأمون :

بسم الله الرحمن الرحيم

من أمير المؤمنين إبرهيم بن المهدى إلى عبدالله المأمون .

« أما بعد . فقد جاءنى كتابك ، فعجبت من خطابك فيه ، وما اجترأت على به من وصفى بالخروج والثورة عليك ، وقد علمت أنى لم أخلعك وحدى لكن الناس فى العراق خلعوك وخرجوا عليك لخروجك على سنة آبائك وشعار آلك ، وتفريطك فى أمرهم ، تريد أن تنقله من ولد العباس إلى ولد على . وقد أقمناه نحن بالسيوف ، وسقيناه بالدماء ، وألزمناهم الحجة بالطاعة لنا منذ اختارنا الله فيه دونهم وفتح الله بنا على المسلمين .

« ثم تزعم أنى نقضت العهود والمواثيق ، فأيها كانت علىّ فى أمرك ؟ . . لقد عهد أبوك بالخلافة للأمين دونك وولاك أمر خراسان تحت ولايته فطمعت فيه ، واغتصبت حقه ، ناقضاً ما قطعته على نفسك ، أمام الله وأمام الرشيد والناس ، ولم تحفظ عهده ولم ترع قرابته ، ولم تخش الله فيه فسلطت عليه صعاليك الجند يذبحونه كما تذبح الشاة فى ظلام الليل وهو يضيح فى جزع ويحكم . . ويحكم . . . أنا ابن عم رسول الله أنا ابن هرون الرشيد . . . الله الله فى دمى . . . فلم يتقوا الله فيه أو تأخذهم رأفة به . ثم صلبوه على باب الأنبار ومثلوا بجثته تمثيلا ، وفصلوا رأسه وأتوا بها إليك محمولة فى ترس كما تحمل رءوس الكفار ، فأينا كان أحفظ للعهود والمواثيق ؟ وأينا كان باراً بقرابته رءوفاً بذوى رحمه وآله .

« لقد والله أتيت أمراً نكراً، وأحدثت فى بنى العباس ما لم يسبقك إليه غيرك، فقتلت أخاك ومثلت به، وخلعت شعار آلك وأردت أن تسلبهم حقهم فى الولاية على المسلمين ، فأى حق علينا فى الطاعة لك . ونحن أحق بها منك والسلام » .

ثم طوى الكتاب وبعث به إلى المأمون . . .

الفصل الرابع

فى مدينة مرو

ما زال المأمون بمرو عاصمة خراسان لم يبرحها ، وكان الخراسانيون أشد أنصاره قوة ، وأعظمهم عدة ، وأكثرهم عدداً فلما بلغته ثورة إبرهيم بن المهدى ببغداد ، وكل إلى وزيره الأكبر الفضل بن سهل فى إطفائها ، فبعث بجيش يقوده أخوه الحسن بن سهل لمحاربة إبرهيم والقضاء على ثورته ، والقبض عليه وتشتيت شمله ولكن هذا الجيش لم يكتب له النجاح ، وفر الحسن بمن معه إلى سمر ، ثم إلى خراسان .

وأراد المأمون أن يعالج إبرهيم بالسياسة ، فبعث إليه بكتابه يؤمنه ويفسح له عنده من عفوه ورعايته ، فرد عليه إبرهيم بكتابه السابق .

قرأ المأمون الكتاب وهو يتميز غيظاً ثم طواه وهو يقول :

— قاتل الله إبرهيم . . . لست من الرشيد ولا الرشيد منى ن لم أثرها عليه حرباً شعواء تأكله وتأكل أصحابه . . . !

وجمع وزراءه وقواده وشاورهم فى الأمر ، فانتهوا إلى إرسال

جيش آخر بقيادة « حميد بن عبد المجيد » أحد كبار القواد على أن يكون هذا الجيش أكثر عدداً وأشد جنداً . فخرج الجيش يقوده حميد ، وخرج معه المأمون بموكبه إلى الصحراء فودعه..

* * *

عاد المأمون وهو واثق من نجاح قائده وفوز جيشه هذه المرة ودخل قاعة العرش ومعه أخوه أبو إسحق المعتصم وبعض الأمراء والوزراء وجلس على أريكة الملك . وإنه لكذلك إذا بحاجبه « فتح » يدخل ويقول :

ـ يا أمير المؤمنين ، مولاكم ابن البواب[1] يستأذن . .

فأذن له ، فدخل محيياً راكعاً ، فقال له المأمون :

ـ ماذا وراءك يا بن البواب ؟

فأخرج ابن البواب ورقة وقال :

ـ إن أذن أمير المؤمنين أنشدته هذا الشعر .

قال المأمون :

ـ هات ما عندك . . .

فشرع ابن البواب ينشد :

---

(١) « ابن البواب » الشاعر ، غير علي بن هلال الخطاط المعروف بابن البواب أيضاً والمتوفي سنة ٤١٣ هـ

أجزنى فإنى قد ظمئت إلى الوعد
متى تنجز الوعد المؤكد بالعهـــد
أعيذك من خلف الملوك وقد بدا
تقطع أنفاسى عليك من الوجـــد
أيبخل فرد الحسن عنى بنائل
قليـــل وقد أفردته بهوى فرد

فقال المأمون :

ـ أحسنت . . . أحسنت . . .

قال ابن البواب :

رأى الله عبدالله خير عباده فملكه والله أعلم بالعبـــد
ألا إنما المأمون للناس عصمة مميزة بين الضلالة والرشد.

المأمون :

ـ أحسنت والله ، وأجدت يا بن البواب . . .

ابن البواب :

ـ يا أمير المؤمنين . إنما أحسن وأجاد قائلها . . . !

المأمون :

ـ أو لست أنت القائل . . . ؟

ابن البواب :

ــ نعم يا آمير المؤمنين لست هو، بل عبدك « الحسين بن الضحاك » . . . !

فاحمر وجه المأمون غضباً ، وقال :

ــ لا حيا الله من ذكرت ، ولا بياه ، ولا أقربه عينا . . . أليس هو القائل حينما قتل أخى « الأمين » :

أعينى جودا وابكيالى محمداً ولا تذخرا دمعاً عليه وأسعدا
فلا تمت الأشياء بعد محمد ولا زال شمل الملك فيه مبددا
ولا فرح «المأمون» بالملك بعده ولا زال فى الدنيا طريداً مشردا

« هذا بذاك ، ولا شىء له عندنا » . . . !

ابن البواب :

ــ وأين فضل إحسان أمير المؤمنين وسعة حلمه ؟

المأمون :

ــ لا أحسن الله إليه ، ولا وسعه حلم حليم !

ابن البواب :

ــ وأين عادة أمير المؤمنين فى العفو والكرم ؟

فسكت المأمون برهة ، ثم قال :

ــ وأين من ذكرت .. أببغداد هو أم بمرو ؟

ابن البواب :

ــ هو الساعة بباب أمير المؤمنين .

فنادى المأمون حاجبه ، وأمره أن يأتى بابن الضحاك فدخل الحسين ، فركع وقبل الأرض ، وقال :

— السلام على مولاى أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته . .

المأمون :

— لا سلمك الله يا هذا ، ولا رحمك ولا بارك لك . هيه يا بن الضحاك تهجونى ، ثم تقصد اليوم بابى ؟ ؟

إبن الضحاك :

— ذاك لكرم علمته فيك ، وحلم اشتهر عنك يا أمير المؤمنين . . .

المأمون :

— أخبرنى . . . ويلك . . . هل رأيت يوم قتل أخى الأمين أن هاشمية قتلت أو هتكت ، أو نبذت صارخة فى الطريق ؟

ابن الضحاك :

— لا يا أمير المؤمنين . . .

المأمون :

— إذن ففيم قولك :

هتكوا بحرمتك التى هتكت ... حرم الرسول ودونها السجفُ

تركوا حريم أبيهموا نفــلا ... والمحصنات صوارخ هتفُ

هيهات بعدك أن يدوم لهم عزٌّ وأن يبقى لهم شرفُ

ابن الضحاك :

ـــ أستغفر الله ، وأستغفر أمير المومنين فما ، حدث ذلك . . .

المأمون :

ـــ وهل رأيت نساء بنى هاشم فى بغداد يندبن كنساء العامة ؟

ابن الضحاك :

ـــ لا يا أمير المومنين ، وحاش لهن أن يفعلن .

المأمون :

ـــ إذن فما معنى قولك :

وسرب ظباء من ذوابة هاشم هتفن بدعوى خير حى وميتِ
أردُّ يداً منى إذا ما ذكرته على كبد حرى وقلب مفتتِ
فلا بات ليل الشامتين بغبطة ولا بلغت آمالهم ما تمنتِ

ابن الضحاك :

ـــ أنشدك الله يا مولاى . ، !

المأمون :

ـــ وهل تركنا الدين ولم نصن حرمته فعاد عندنا مطروحاً مهيناً ، وذهبت بشاشة كل شىء فى هذه الدنيا ؟

ابن الضحاك :

— لا — جعلت فداءك — فقد اعتز الدين والدنيا بك يا أمير المؤمنين .

المأمون :

— إذن ففيم قولك فى « الأمين » :

هو الجبل الذى هوت المعالى لهدته وريع الصالحونا
ستندب بعدك الدنيا جواراً ونندب بعدك الدين المصونا
فقد ذهبت بشاشة كل شىء وعاد الدين مطروحاً مهيناً

ابن الضحاك :

— يا أمير المؤمنين . . . لوعةٌ غلبتنى ، وروعةٌ فاجأتنى ، ونعمةٌ حرمتها بعد أن غمرتنى ، وإحسان شكرته فأنطقنى ، وسيدٌ فقدته فأقلقنى ، فإن عاقبت فبحقك ، وإن عفوت فبفضلك ! .

المأمون :

— يا بن الضحاك جعلت عقوبتك امتناعى عن استخدامك وقد عفوت عنك وأمرت بأدرار رزقك ، وإعطائك ما فات منها . . .

ابن الضحاك :

— أطال الله بقاء أمير المؤمنين ، وحفظه للدين والدنيا . !

وأذن له المأمون ، فانصرف ، وما كاد يغيب حتى أقبل قاضى

القضاة « يحيي بن اكثم[١] » واستأذن لإسحق الموصلى ودخلا معاً ، وكان إسحق قد وصل إلى « مرو » بعد ما فر من وجه إبرهيم بن المهدى . فسلم كل منهما على أمير المؤمنين ، وجلسا ، فقال المأمون :

ــ خبرنى يا يحيي . أكان علينا بأس فيما أخذناه من اللباس الأخضر دون الأسود ؟

فقال يحيي :

ــ حاش يا أمير المؤمنين . بل حسنا فعلت ، فان الأخضر خير من الأسود ، والخضرة رخاء وخصب ، والسواد ظلام وجدب أرأيت كيف تخضر الأرض فى الربيع ويهتز رباها . والملابس الخضراء ملابس بيت الحسين بن على ، وهى ملابس أهل الجنة يلبسون من سندس خضر وإستبرق . . . !

قال المأمون :

ــ وهل كان من بأس إذ بايعت لعلى بن موسى الرضا رحمه الله بولاية العهد من بعدى ، وهو أفضل بنى هاشم فى

---

(١) قاضى قضاة المأمون ، وكان يتملق المأمون كثيراً وقد قال له مرة «يا أمير المؤمنين إن خضنا الطب كنت جالينوس فى معرفته ، أو علم النجوم كنت هرمس في حسابه ، أو الفقه كنت على بن أبى طالب فى علمه ، أو ذكرنا السخاء كنت فوق حاتم ، أو صدق الحديث كنت أباذر»

هذا الزمان ؟ !

فقال يحيي :

— والله يا أمير المؤمنين لقد كان أصح الناس بعدك دِيناً ، وأكثرهم ورعاً . . .

فقال إسحق الموصلي : .

— يا أمير المؤمنين ما رأيت أبا نواس — رحمه الله ترك معنى من المعانى إلا قال فيه شعراً . وقد ذكرته يوماً بذلك وقلت له : « يا أبا نواس قلت ما قلت فى كل شىء وهذا على بن موسى لم تقل فيه شيئاً » فقال :

— والله يا إسحق ما تركت ذلك إلا إعظاماً لمقامه ، وليس قدر مثلى أن يقول فى مثله شعراً ، ثم سكت قليلا وأنشد :

قيل لى أنت أحسن الناس طرا ... فى فنون من الكلام النبيه

لك من جيد القريض مديح ... يثمر الدر فى يدى مجتنيه

فلماذا تركت مدح ابن موسى ... والخصال التى تجمعن فيه

قلت لا أستطيع مدح إمام ... كان جبريل خادماً لأبيه

قال المأمون :

— صدق والله الحسن بن هانىء

ثم التفت إلى إسحق ، وقال :

— وأين كنت يا إسحق بعد فرارك من بغداد ؟

قال إسحق :

— خرجت يا أمير المؤمنين من بغداد متنكراً فلم يظفر بي إبرهيم فضربت في الصحراء حتى أتيت مدينة « الرقة » وقد حمي النهار ، فوقفت أستريح في فناء بيت رحب ، فما لبثت أن مر بي خادم يقود حماراً فارهاً[١] عليه جارية حسناء ، تحتها منديل مصري ، وعليها من اللباس الفاخر ما ليس وراءه غاية فدخلت البيت الذي كنت واقفاً بجواره[٢]. ثم لم ألبث أن جاء شابان جميلان ، فاستأذنا فأذن لهما ، فدخلت أنا معهما ، فظنا أن صاحب الدار دعاني ، وظن صاحب الدار أني معهما ، فجلسنا وأتي بالطعام ، فأكلنا وبالشراب فوضع بين أيدينا ، وخرجت الجارية الحسناء ، وفي يدها عود فغنت لذي الرمة :

ألم تعلمي يا مي أني وبيننا مهاو[٣] لطرف العين فيهن مطرح
ذكرتك أن مرت بنا أم شادن[٤] أمام المطايا تشرئب وتسنح

وشربنا يا أمير المؤمنين على هذا الغناء الجميل ساعة ، واهتزت اعطافي ، وسأل صاحب الدار الشابين عني فأخبراه أنهما لا يعرفانني فقال :

---

(١) الفاره النشيط الخفيف (٢) هذه القصة رواها الأغاني لاسحق وروى غيره ما يشبهها لإبرهيم بن المهدي (٣) جمع مهواة وهي ما بين الجبلين (٤) أم شادن كنية الغزال

— هذا طفيلى ، ولكنه ظريف ، فأجملوا عشرته .

وغنت الجارية بعد ذلك ثلاثة أدوار كلها من أدوارى فأخطأت فى الدور الثالث ، فاستعدته منها لأصححه فغضبت ، فقال أحد الشابين : «ما رأيت طفيلياً أصفق منك وجها لم ترض بالتطفيل حتى تريد تصحيح الغناء » فأطرقت ولم أجبه ، ثم قاموا للصلاة وتأخرت قليلا فأخذت عود الجارية فشددته وضبطته ضبطاً محكماً وعدت إلى موضعى ، فصليت ، وعادوا فأخذت الجارية العود فمسته فعرفت أن أحداً مسه ، فقالت « من مس عودى ؟ » قالوا : « ما مسه أحد » قالت : « بلى والله لقد مسه حاذق متقدم فى الغناء » قلت : « أنا أصلحته » قالت : « فبالله خذه واضرب به » فأخذته وضربت ؛ فما بقى أحد فى المجلس إلا وثب على قدميه وهز عطفيه . ثم قالوا : « بالله يا سيدى من أنت؟ » قلت : « أنا إسحق الموصلى » فأقبلوا على يا أمير المؤمنين ، وغنيت الأدوار التى غنتها الجارية ، فقال صاحب الدار : «هل لك أن تقيم عندى شهراً والجارية والحمار لك مع ما عليهما من الحلى» قلت : « نعم » فأقمت عنده شهراً لا يدرى أحد أين أنا ، وهأنذا جئت إليك يا أمير المؤمنين

فضحك المأمون وقال :

— قاتلك الله . . . كنت أبحث عنك طويلا ، حتى حسبت

أن إبرهيم بن المهدى قد احتجزك .

قال إسحق :

ــ الحمد لله الذى نجانى من المارق . . . !

* * *

ودخل « فتح » الحاجب فقال :

ــ كلثوم العتابي[١] يا أمير المؤمنين .

فأذن له المأمون ، فدخل ، وحياه ، فقال :

ــ حيا الله أمير المؤمنين وبياه ، وبارك عهده .

قال المأمون :

ــ حياك الله وبياك يا عتابى ، بلغتنا وفاتك فغمتنا ، ثم انتهت إلينا وفادتك فسرتنا . . . !

كلثوم :

ــ أحمد الله على الموت والحياة ما دمت فى رعاية أمير المؤمنين .

المأمون :

ــ وكيف حالك يا عتابى ؟

ــ حال رجل لا يطمع فى الدنيا إلا فى رضا أمير المؤمنين .

(١) من كبار شعراء ذلك العصر . وأصله من قنسرين وله مصنفات فى اللغة والأدب . وكان متقشفاً زاهدا .

فاستظرفه المأمون وأراد أن يمزح معه ، فقد كانت له أطوار غريبة ، فقال له :

— وكيف شأنك يا عتابى ؟

فأجاب :

— فى خير إن شاء الله

فسكت المأمون وتشاغل بشىء ثم عاد فقال :

— وكيف حالك يا عتابى ؟

فقال كلثوم :

— أتهزأ بى يا أمير المؤمنين . . . إن الإيناس[١] قبل الإبساس؟

قال إسحق الموصلى :

— وما هو الإبساس يا شيخ ؟

فقال كلثوم :

— ومن أنت أيها الوسواس ؟

قال إسحق :

— أنا من بعض الناس .

كلثوم :

— وما اسمك يا هذا ؟

---

(١) الإيناس ضد الإيحاش . والإبساس الرفق بالناقة عند الحلب وهو أن يقال بس بس وهو مثل يقال فى المداراة عند الطلب

إسحق :

ـــ اسمي « كل بصل » . . . !

كلثوم :

ـــ هذا اسم منكر مستنكر . وما« كل بصل» في الأسماء ؟

إسحق :

ـــ ما أقل إنصافك يا شيخ ، وما اسمك أنت ؟

كلثوم :

ـــ اسمي كما سمعت « كلثوم »

إسحق :

ـــ وما « كل ثوم » بين الأسماء . والبصل خير من الثوم . . !

فضحك المأمون حتى استلقى ، وضحك من بالمجلس ، فقال كلثوم . . . ،

ـــ قاتلك الله ما أملحك . . . ولكن ما رأيت كالبصل حرارة

قال إسحق :

ـــ وما رأيت كالثوم رائحة . . . ،

فقال كلثوم :

ـــ غلبني والله يا أمير المؤمنين . . .

إسحق :

ـــ ما دمت أقررت بأني غلبتك فمن أكون ؟

كلثوم :

– لعلك الشيخ الذى تناهت إلينا أخباره بالكوفة ويعرف بإسحق الموصلى .

إسحق :

– هو من قلت . . . وقد سرتنى رؤيتك .

وما كاد ينتهى إسحق حتى استأذن « فتح » الحاجب لرئيس الشرطة دينار بن عبدالله ، فأذن له المأمون ودخل ، وحيا الخليفة ، فسأله عما جاء به ، فقال دينار :

– جئت يا مولاى برجل يدعى أنه النبى « إبرهيم الخليل » عليه السلام . فابتسم المأمون وقال متهكماً :

– أدخله نستمع لوحيه .

فذهب دينار ، وأتى بالرجل

فقال له المأمون :

– هل أنت إبرهيم الخليل ؟

قال الرجل :

– نعم . . . نعم . . . يا عبدالله .

فغاظت المأمون جرأته ، فقال يحيى بن أكثم :

– هل يأذن أمير المؤمنين أن أناقشه ؟

قال المأمون :

ـ دونك وإياه . . .

فقال يحيي :

ـ يا هذا إن إبرهيم الخليل كانت له براهين . . .

قال الرجل :

ـ وما هي براهينه ؟

يحيي :

ـ أضرمت له النار ، وألقى فيها ، فكانت عليه برداً وسلاماً ! فنحن نضرم لك النار ، ونطرحك فيها ، فإن كانت عليك برداً وسلاماً آمنا بك وصدقناك .

الرجل :

ـ هذا برهان عسير ، فاسألني برهاناً آخر .

يحيي :

ـ وكان من براهين موسى أن ألقى العصا ، فإذا هي حية تسعى وضرب بها البحر ، فانفلق ، فافعل بعصاك مثله .

الرجل :

ـ هذا برهان صعب . وما لنا وللعصا ، وللحية يا صاح ولسنا أمام فرعون ، بل أمام المأمون . . !

يحيي :

ـ وكانت براهين عيسى عليه السلام إبراء المرضى ،

وإحياء الموتى فافعل مثل ما فعل . . .

الرجل :

ـ جئت بالطامة الكبرى . مالى وللمرضى ، والأطباء كثيرون ثم مالى وللموتى ، وقد بعثت للأحياء . . . !

فضحك المأمون والحاضرون وقال للرجل :

ـ لا بد لك من براهين وإلا ضربنا عنقك . . . !

قال الرجل :

ـ ما معى شىء مما تطلبون . ولقد قلت لجبريل حين أرسلت بالرسالة إنكم ترسلونى إلى قوم فيهم أمير المؤمنين المأمون وفيهم قاضى القضاة يحيى بن أكثم ؛ فأعطونى برهاناً أذهب به إليهم فغضب جبريل وقال : « اذهب أولا وانظر ما يقول لك القوم ، ثم نعطيك ما يطلبون » !

فأغرق المأمون فى الضحك ، وقال :

ـ هذا نبى يصلح للمنادمة . . . !

ثم أمر بإطلاقه وانفض المجلس وخرج المأمون ليقضى وقتاً فى الرياضة وصيد الثعالب والظباء ليخفف عن نفسه متاعب الملك ، وهموم التفكير فى ثورة العراق ، وفى الثائر إبرهيم ابن المهدى . . . !

ساحر ومسحور

عاد المأمون من الصيد بعد ما قضى فيه ثلاثة أيام . وقد أصاب من الثعالب والغزلان عدداً ، وقنص فيما قنص نمراً مخططاً ثائراً أتى به حياً ، فسماه « إبرهيم المبارك » تفاؤلا بأنه سيتغلب على إبرهيم ، ويقبض عليه ويطفىء ثورته ، ويأتى إليه مقيداً ذليلا ، كما قنص هذا النمر وقيده ، وأضعف قوته وأذل كبرياءه . وكان المأمون لا ينفك مهتماً بثورة إبرهيم وخروجه عليه ، وزاد فى همه ما علمه من انضمام بنى العباس إليه فى الكوفة والأنبار وبغداد وسائر العراق والشام ، وقد شايعوه وبايعوه أميراً للمومنين ولكنه منذ بعث « حميد بن عبد الحميد » بجيشه وما حوى من عدة ضخمة وعدد غفير ، وما زوده به هو وجنوده من الوصايا والوعود بالعطايا الجزيلة ، كان مطمئناً إلى أن قائده سيبلغ ما يريد ، ويحقق له ما يتمنى .

وكان الفضل بن سهل وزيره الأكبر يزيده اطمئناناً وأملا بما يهون عليه من شأن إبرهيم ، ويخفى عنه بعض ما يحدث فى العراق من خطر هذه الثورة ، ونقمة الناس على المأمون ، شأن بطانة الملوك ووزرائهم ، يخفون عنهم حقيقة ما يجرى بين الشعب

ولكن المأمون كانت له عيون ينظر بها غير عيون الفضل بن سهل ، وكان يتابع أنباء جيش « حميد » على الدوام . . وجلس المأمون فى ديوانه وهو فى « مرو » يعالج شئون خراسان ، وكانت هناك طائفة من الزنادقة اهتم بالقضاء عليهم وعلى دعوتهم بين الناس ، وكانوا من الزنادقة المانوية أتباع « مانى » . . وهو مانى بن فاتك الحكيم الذى ظهر فى عهد ملك الفرس سابور بن أزدشير بعد ظهور المسيحية . وقد ابتدع دينا بين المسيحية والمجوسية ، وكان ينفى نبوة موسى ، ويعترف بنبوة المسيح . وقد زعم أن العالم مركب من أصلين قديمين هما النور والظلمة وأنهما أزليان لم يزالا ولن يزالا . وأن النور جوهره حسن فاضل ، كريم صاف نقى طيب الريح جميل المنظر وأن الظلمة جوهر قبيح ناقص لئيم كدر خبيث منتن الريح قبيح المنظر .

وأن للنور خمسة أجناس ، أربعة منها أبدان ، والخامس روحها فالأبدان هى النار ، والنور ، والريح ، والماء ، وروحها النسيم ، وللظلمة خمسة أجناس كذلك منها أربعة أبدان وهى الحريق والظلام ، والسموم ، والضباب ، وروحها الدخان . وهى تدعى الهامة وتتحرك فى هذه الأبدان .

وكان لمانى اعتقاد فى بعض الشرائع دون البعض الآخر ، وله فى ذلك مذهب وأتباع طالما حاربهم المأمون .

واستأذن دينار رئيس العسكر فى الدخول . فأذن له المأمون فدخل وسأله عن شأنه وما أتى به ، فأنبأه أنه قبض على عشرة من الزنادقة المانوية فأمر بإحضارهم فسألهم :

ــ أنتم الزنادقة ؟

فقال أحدهم :

ــ أنا لست زنديقاً يا أمير المؤمنين .

قال المأمون :

ــ وما خبرك يا هذا ، ولماذا جئت معهم ؟

ــ امرأتى طالق يا أمير المؤمنين إن كنت والله أعرف هؤلاء أو أعرف من أمرهم شيئاً ، وإنما أنا رجل طفيلى .

المأمون « ضاحكاً » .

ــ طفيلى . . .

الرجل :

ــ نعم طفيلى . رأيت هؤلاء قد اجتمعوا ، فقلت ما اجتمع هؤلاء إلا لوليمة ، فدخلت فى وسطهم ومضيت معهم ، فأركبهم الموكلون بهم سفينة ، فرأيت فرشاً ممهداً وخبزاً وسلالا مملوءة ، فقلت : نزهة لطيفة يمضون بها إلى بعض البساتين والقصور . وهذا يوم سار » وبشرت نفسى ، ولكن لم أر نزهة ولا بستاناً . وبينما نحن كذلك إذ جاء الشرطة ، فقيدوهم وقيدونى معهم

وأنا لا أدرى شيئاً ، فقلت لهم : « ايش انتم ؟ » فقالوا : « بل ايش أنت . . ومن أنت . . أمن إخواننا ؟ » قلت : « كلاّ . بل أنا طفيلى أحببت أن لا تتركونى دون هذه النزهة الجميلة ، والوليمة المباركة» . فتبسم القوم ونظر بعضهم إلى بعض وضحكوا . ثم قالوا : « لقد حصلت معنا فى الإحصاء، وأوثقت فى الحديد . أما نحن فزنادقة مانوية أمر المأمون بالقبض علينا . » ووالله يا أمير المؤمنين ما أدرى من هو « مانى » . وهل هو رجل أو امرأة ، وهل هو إنسان أو شيطان ! . . . »

فقهقه المأمون قهقهة عالية وقال :

— يا دينار . فك قيود هذا الرجل .

فقال الطفيلى :

— أحمد الله إلى أمير المؤمنين .. أأنطلق ؟ . . .

المأمون :

— لا بل انتظر ها هنا . . .

وأشار إلى ناحية من المجلس . ثم التفت المأمون إلى الزنادقة ، وقال :

— وأنتم ماذا تقولون عن العالم ؟

أحدهم :

— نقول ما قاله « مانى » إنه نشأ من النور والظلام . . .

المأمون لباقيهم :

ـــ وأنتم تقولون هذا القول ؟

الجميع :

ـــ نعم . . . نعم . . . !

المأمون لدينار :

ـــ يا دينار . اذهب بهم إلى أحد أصلى العالم . . . اذهب بهم إلى ظلام السجن أعماهم الله . . .

وأراد بعضهم أن يتكلموا فعاجلهم المأمون قائلا :

ـــ اخسأوا قاتلكم الله . . .

ودفعهم الجنود إلى السجن ، ثم التفت إلى الطفيلى وقال :

ـــ وأنت يا هذا تطفلت ، فغامرت ، والله لأكاد أن أقذف بك معهم !

الطفيلى :

ـــ عفواً يا أمير المؤمنين ، وليسعنى حلمك ، فقد جاءوا بى إليك وهى مغامرة كانت خيراً وبركة وبرداً وسلاماً . وهى عندى خير من ثلاث ولائم . . . !

فضحك المأمون ، وقال له :

ـــ قاتلك الله . إن فيك لظرفاً . . . انصرف وعفوت عنك !

* * *

انصرف الطفيلي . . . وما كاد يغيب عن المجلس حتى سمعت ضجة في الخارج ، فإذا بالوزير الأكبر الفضل قادماً محمولا كعادته على كرسي مجنح ، وكان المأمون قد أجاز له ذلك تكريماً له ، وسماه ذا الرياستين . . . !

وأقبل الفضل في هذه الهيئة . حتى إذا كان على مرأى من المأمون نزل وترجل ، وسلم على أمير المؤمنين وجلس عن يساره فقال المأمون :

— كيف حال العراق يا فضل ؟

— إنها حال تسر أمير المؤمنين ، وتكبت أعداءه . . . إن العراقيين يلتفون حولك ويخلصون لمولاي الحب والولاء .

— وما شأن إبرهيم بن المهدي فيهم .

— إنه مخذول منبوذ في طائفة قليلة من رعاع القوم

فسكت المأمون ملياً ، وقال :

— ولكن الوافدين من بغداد يقولون غير ذلك .

فقال الفضل في غير تريث :

— وهل دخلت على أمير المؤمنين يوماً بكذب ، أو حدثته بغير ما أعلم ، أو مالأت أحداً عليه ، وإذا كان أمير المؤمنين قد شرفني بثقته ورفعني إلى موضع أمانته وسره ، فكيف يقول لي هذا القول . . . ؟!

— لا والله يا فضل ما علمت عنك سوءاً ، ولكن إذا كانت الحال على ما تصف فكيف أنباء جيش حميد بن عبد الحميد ؟

— إنه على ما يحب أمير المؤمنين قد انتصر منذ الساعة الأولى

— ولكنى علمت أنه خسر الجولة الأولى بين جيشه وجيش إبرهيم . . !

وهنا دخل الحاجب يستأذن لهرثمة بن أعين أحد قواد العباسيين القدماء ، وأكبرهم فى عهد المهدى والرشيد ، وكان بينه وبين الفضل بن سهل ضغينة ولم يكن راضياً عن سياسته فأذن له ودخل ، فقال :

— السلام على مولاى أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته

المأمون :

— وعلى هرثمة السلام والبركات . لماذا تجشمت كل هذا السفر يا أبا حاتم [1] ؟

هرثمة :

— تجشمت ذلك ، لأقضى حق الله فى طاعة أمير المؤمنين وأنبهه إلى أمره وأقوم بالنصح له .

المأمون ، وقد أدرك مراده :

— يا أبا حاتم ليست بك حاجة إلى هذا ، وأنت شيخ مريض

(١) كنية هرثمة

تعب ، فانصرف إلى منزلك تسترح .

هرثمة :

— لا يا أمير المؤمنين ما تجشمت طول السفر ، ووعثاء الطريق لأنصرف إلى منزلى !

المأمون :

— بلى يا أبا حاتم . أحب أن تنصرف لتستريح . ودع ذكر ما لا نحتاج إليه ، وما أنت عنه فى غنى .

هرثمة :

— كلا يا أمير المؤمنين ، حتى أقضى الحق فى نصحك ، فإنى لا آمن أن يحدث على فى هذه الساعة حادث ، فألقى ربى مقصراً فى حق أمامى .

ثم التفت هرثمة إلى الفضل بن سهل وقال مشيراً إليه فى تهكم :

— الحمد لله يا أمير المؤمنين الذى لم يمتنى حتى رأيت هذا المجوسى يحمل إلى مجلسك فى كرسى مجنح ، ويجلس بين يديك على كرسى كأمراء بنى العباس . . !

فقال المأمون متجهماً :

— دع ما لا يعنيك يا هرثمة لما يعنيك . ولاشأن لك بالفضل ابن سهل .

هرثمة :

ـ يا أمير المؤمنين ما لمسرور وسلام خادمى أبيك الرشيد يحبسان بغير ذنب ، ويأخذ هذا المجوسى أمتعتهما ، فيمزقها ويحرقها . . ألأنهما أعانا أباك الرشيد فى الفتك بجعفر البرمكى وآله ، فيأتى هذا وينتقم من الأحياء للأموات .

المأمون غاضباً :

ـ يا هرثمة مالك وذكر ما لا نحتاج إليه . !

وهنا نهض الفضل فى غضب وحقد وقال لهرثمة :

ـ وما أنت وهذا يا سفيه . . يأمرك أمير المؤمنين أن تمسك عن الكلام ، ولا تتعرض لما لا يعنيك ، فتأبى ، وتقول ما تقول غير مكترث بحقه ، ولا سامع لقوله ولا محترم لطاعته ، أو تظن أنك تكرهه على أن يسمع منك لغواً ، ويصدق منك كذباً ، ويأخذنى بما سولت نفسك البغيضة حسداً منك لأوليائه ، وتطاولا على خاصة رجاله . ويلك . . . وأين لك هذه المنزلة . ؟ تقول لأمير المؤمنين إنك تنبهه إلى أمره ، وتقوم له بالنصح ، كأنه نزل منك حيث ينزل الولى من المولى ، وقد ردك فى ذلك رداً لطيفاً ، وأجابك جواباً ليناً ، فما ارعويت ، ولا استحيت ، بل كنت تجيب بالقول الجرىء والكلام البذئ . أكان حلم أمير المؤمنين ، أعزه الله يسع منك أكثر ما وسع ، وقد أتاه

ما كان من سعيك لإبرهيم بن المهدى وثنائك عليه ، وخيانتك ليلة خلع الأمين . لولا أن طاهراً بن الحسين(١) فطن لما دبرت وكشف ما عليه تآمرت ، فأوقعك الله وأوقع المخلوع ، فخرجت من نهر دجلة تزعم أنك كنت تريد أسره والذهاب به إلى الخليفة ، وتسليمه بردة الخلافة والخاتم والقضيب ، فما صدقتك ولا سمعت لك وأبعدتك عن نعماء أمير المؤمنين ، فرحت تشيع الأباطيل ، وظننت يا جاهل بسوء تدبيرك ، أنك لو أتيت أمير المومنين ، فلغوت بما لغوت ، واجترأت بما اجترأت ، صدقك وأحلك محل الناصح الأمين ، ولكنك ما كدت تفتح شفتيك بما افتريت حتى استبان سوء قصدك ، وعرف سبيل غيك فأوقفك عند حدك وردك إلى شأنك فما انتبهت ولا ارعويت .

«أرأيت لو أن أمير المؤمنين بطش بك الساعة أكان لك منه معاذ ؟.. والله لأكاد أركلك برجلي ركلة تذهب بك إلى نار جهنم . . اذهب . . اخسأ .. لا رحمك الله .. »

ثم نادى الفضل ديناراً وجنده قائلا :

— خذوا برجل هذا الجاهل السفيه وجروه على وجهه إلى السجن . . !

---

(١) طاهر بن الحسين هو قائد المأمون في الحرب بينه وبين الأمين وهو الذى حاصر بغداد إلى أن قتل الأمين وحمل رأسه إلى المأمون

ففعل الجند ما أمر الفضل . . . وسكت المأمون ثم قال له :

ــ أحسنت يا فضل . . . والله لو لم تقل له ما قلت، لكنت قلته ، ولو لم تفعل ما فعلت لأمرت الساعة أن يقتل .

ثم نهض المأمون ، وأذن للفضل والحاضرين بالانصراف ، ولكنه استبقى كاتبه عمرو بن مسعدة .

* * *

انصرف القوم ثم التفت المأمون إلى عمرو وقال :

ــ أرأيت يا عمرو ما فعل الفضل بن سهل بالشيخ هرثمة فى مجلسى مع بلائه فى هذه الدولة . وهو قائدى وقائد أبى وجدى والله إنى لهممت أن أقتل الفضل بن سهل الساعة . . . ،

ابن مسعدة !

ــ والله يا أمير المومنين ما تكلم الشيخ هرثمة إلا حقاً ولقد ستر الفضل عنك كثيراً وأغضب منك أهل العراق حتى قالوا عنه « إنه ساحر وأنك مسحور به . . ! »

المأمون :

ــ عجباً .. أهكذا يقولون ؟ !

ثم أطرق المأمون فى تفكير عميق .

عمرو بن مسعدة

كان عمرو بن مسعدة – ويكنى أبا الفضل[١] – من أصل تركى أبيض الوجه فى احمرار. وجده « صول بن صول » كان رجلا تركياً تولى إمارة جرجان ، وتشبه بالفرس فى عاداتهم وأخلاقهم ، وكلمة « صول » كانت لقباً لحكام دهستان ، كما يطلق لقب كسرى على الساسانيين من ملوك الفرس .

وقد تولى عمرو الكتابة للمأمون ، فأحبه وآثره وقدمه على سائر كتابه ، وولاه ديوان الرسائل وديوان الخاتم والتوقيع والأزقة ، ثم تولى حكم فارس وكرمان . وكان المأمون يعجب ببلاغته ، ويسند إليه الكتابة فى مهام دولته .

ودخل أحمد بن يوسف الكاتب على المأمون يوماً ، فرأى بيده كتاباً من عمرو ، وهو يتأمل فيه مدة ، فوقف حتى انتهى منه والتفت إلى أحمد ، فقال له : « إن فى هذا الكتاب كلاماً نظير ما سمعت من الرشيد عن البلاغة من أنها التباعد عن الإطالة ، والدلالة بالقليل من اللفظ على الكثير من المعنى . وما كنت أتوهم أن أحداً يقدر على ذلك حتى جاءنى هذا

(١) توفى عمرو بن مسعدة فى سنة ٢١٧ هـ قبل وفاة المأمون بعام واحد.

الكتاب من عمرو فإذا فيه : (كتابى إلى أمير المؤمنين ، ومن قبلى من قواده وروساء أجناده فى الانقياد والطاعة على أحسن ما تكون طاعة جند تأخرت أرزاقهم ، وانقياد كفاة تراخت أعطياتهم فأخلت لذلك أحوالهم ، والتاثت معه أمورهم) .

« وإن استحسانى هذا الكتاب بعثنى على أن أمرت للجند بأعطيتهم لسبعة أشهر . . لله عمرو ما أبلغه ، ألا ترى كيف أومأ إلى وجه المسألة فى الإخبار ، وإعفاءه سلطانه من الإكثار »

وكان عمرو ذا ثروة واسعة مما أقطعه إياه المأمون ومما نزل عنه من خراج بعض الولايات كما كان خلفاء ذلك العهد الذهبي يفعلون لخاصتهم حتى قيل إنه مات عن ثمانية ملايين دينار بعد ما عاش عيشه البذخ والترف ، وبذل ما بذل من كثير الأموال للعلماء والشعراء وغيرهم . ولا غرو فقد كان ملك العباسيين أكبر من قارة أوروبا ، وكانت الضرائب تجبى من كل مكان إلى بغداد . . !

وقد كان لعمرو فرس أدهم أغر لم يكن للمأمون مثله : فرآه يوماً واستحسنه فبادر عمرو بإهدائه إليه مع كتاب فيه هذه الأبيات :

يا إماماً لا يدانيه إذا عدَّ إمام
فضل الناس كما يفضل نقصاناً تمام
قد بعثنا بجواد مثله ليس يرام

فرس يزهى به للـ ـحسن سرج ولجـــام
دونه الخيـــل كما دو نك فى الفضل الأنام
وجهه صبح ولكن سائر الجسم ظـــلام
والذى يصلح للمو لى على العبـــد حرام

كانت هذه منزلة عمرو عند المأمون ، فليس غريباً أن يستبقيه ، ويصرف من حضر فى المجلس ، وفيهم الفضل بن سهل كبير وزرائه وعظيم دولته . وقد كان بين عمرو وفضل ما بين الوزراء والنظراء ورجال السلطان من تنافس ودسائس وايثار للنفس بالحظوة والولاء .

* * *

فلما أفضى المأمون بما فى نفسه لعمرو حين رأى الشيخ هرثمة ابن أعين يفعل به الفضل بن سهل ما فعل بمجلسه ، أجاب الخليفة بما أجاب به ، وقال له إن الفضل ستر عنك كثيراً ، وأغضب أهل العراق حتى قالوا « إنه ساحر وإنك به مسحور » ! !

فقال المأمون لعمرو :

— ومن يعلم هذا غيرك من رجالى يا أبا الفضل ؟

فأجاب :

— يعلمه خلف المصرى ، وعلى بن سعيد ، وعلى بن هشام

فبعث المأمون من أتى بهؤلاء الثلاثة فى اليوم التالى . . .

حضروا وسلموا وركعوا، وقبلوا الأرض ثم رفعوا رءوسهم فقال لهم المأمون :

ـــ ماذا تقولون فى الفضل بن سهل . . . هل هو يغشنى . . !

فالتفت بعضهم إلى بعض ، ولم يتكلموا . فأعاد المأمون سؤاله . فسكتوا ثم قال خلف المصرى :

ـــ لا نقول شيئاً يا مولاى حتى تعطينا الأمان من الفضل . !

المأمون :

ـــ قولوا وأنتم آمنون .

خلف المصرى :

ـــ إنه والله يا أمير المؤمنين ما صدقك الفضل بن سهل حين حدثك عن بغداد والعراق وإبرهيم بن المهدى ، وإن بغداد اليوم تتأجج بفتنة شعواء ، فإن لم يتداركها أمير المؤمنين ذهبت بسلطانه .

على بن هشام :

ـــ نعم يا أمير المؤمنين وإن أمر إبرهيم بن المهدى لفى صعود واقبال ، وقد صار العراقيون فى كل مكان يهتفون به وينادونه خليفة المسلمين ، وأمير المؤمنين .

على بن سعيد :

ـــ وقد غشك الفضل بن سهل فى أمر هرثمة . والله يا أمير

المؤمنين ما كذب هرثمة ، ولا خانك فى أمر ولا ائتمر بك يوم حصار الأمين ببغداد ، وما أراد له أن يفر من وجهك إنما كان كل همه أن يحفظ حياته، وأن يأتى به حياً، لأنه يعلم أنك كنت تحب لأخيك الحياة ،ولكن الفضل سلط عليه طاهر بن الحسين وهذا سلط عليه صعاليك الجند فذبحوه كما تذبح الشاة وكان ما كان من لوم الناس ، وغضب بنى العباس .

خلف المصرى :

— والله يا أمير المؤمنين لقد نصحك الفضل فغشك ، وأنبأك فكذبك ، وما تجشم الشيخ هرثمة ما تجشم من السفر والتعب وهو شيخ طاعن السن واهن القوى إلا ليؤدى حق الله فى طاعتك ، وحق ولائه لأهل بيتك ، ولكنه أخذ من مجلسك على ما رأيت وألقى فى السجن ، وما خرج الفضل من عندك حتى بعث إليه من قتله !

المأمون :

— وقد قتله ؟!

خلف المصرى :

— نعم قتل غلام الفضل الشيخ هرثمة فى السجن منذ ساعة !

فدمدم المأمون بكلام ثم قال :

— أهكذا يفعل بأوليائى ، والله ليلقين جزاءه . . . !

عمرو بن مسعدة :

– يا أمير المؤمنين لقد رفعت الفضل بن سهل ، وأحللته الغاية من حظوتك ، وجعلت له الرياستين رياسة الحرب ورياسة التدبير تفضلا منك ونعمة ، فظن من سوء رأيه أنه نظير نفسك ، وأنه إن نزلت عن مكانك صار له عرشك وسلطانك . وكان يقال « إذا عرف الملك من الرجل أنه قد ساواه فى الرأى والمنزلة والهيبة والمال والتبع فليصرعه ، فإن لم يفعل كان هو المصروع »

ثم ما عرف يا أمير المؤمنين فضلك عليه . ولا شكر نعماءك ، بل اتخذها حرباً لأوليائك ، واستغلها لمآرب أعدائك وقد رأيت ما فعله بهرثمة فى مجلسك اجتراء منه عليك ، واستخفافاً بحقك ، ولو كان قد وضع نفسه موضعها لما فعل ما فعل بحضرتك ، ولما تولى ذلك عن أمير المؤمنين ، وهو أعلم بالأمور . !

المأمون :

– يا عمرو . حقاً لقد رفعته على الناس ، وأحللته عندى محل بنى العباس ، وأقطعته وأعطيته ، وجعلت له مرتبة من يقول فى كل شيء فيسمع منه ولا يرد ، ولا يتقدم غيره عليه فى المراتب .

ولكن خل شأنه ، فله يوم آخر . وانظر ماذا ترى فى أمر الفتنة بالعراق .

ابن مسعدة :

— أرى الرأى أن يأمر أمير المؤمنين ، فنخرج ويخرج معنا إلى بغداد ، فإن الناس قد فتنوا هناك بإبرهيم بن المهدى . ولو رآك البغداديون بينهم لهدأت ثائرتهم وانطفأت فتنتهم واغتبطوا بمقدم أمير المؤمنين وهرعوا إليه بالطاعة والولاء فإنهم يحبونه ويعظمونه منذ كان صبياً معروفاً بينهم بالنجابة والفصاحة والتقوى .

يا أمير المؤمنين إن النفاق من أخلاق الجماهير ، وأنت فى حكمة تدبيرك ، وبراعة سياستك ، وفصاحة لسانك وعظيم كياستك أقدر على أن ترد الأمر إلى نصابه، وقد ميزك الله بالعلم وفضلك بالسداد ووفقك إلى ما أنت به أهل ، وما أنت به جدير وأرادك حافظاً لتراث الرشيد فى ولده وأن تكون للدين والدنيا خير امام .

المأمون :

— أحسنت يا عمرو . . . نعم الرأى ما رأيت . ولنذهب إلى بغداد . . . هيا بنا إلى دار السلام .

الفصل الخامس

إلى عروس المشرق

برح المأمون « مرو » إلى بغداد[1] دار السلام ، لإطفاء الفتنة ، والقضاء على دعوة إبرهيم بن المهدى وتوطيد دعائم خلافته ، وتثبيت وطائد ملكه ، وتشييد أركانه ، والتقرب من العرب وتقريبهم ، والجمع بالمودة بينهم وبين أنصاره الخراسانيين .

وقد مات على بن موسى الرضا وانتهى أمر ولاية العهد التى ولاه إياها المأمون فأغضبت بنى العباس والعرب فى العراق . ولكن هل يرضى العرب ذهاب الموت بهذه الولاية دون شعار العلويين الأخضر الذى ما زال يتمسك به المأمون ويلبسه هو ورجاله ؟ وهل يرضى العرب فى العراق أن يتعاونوا مع الفضل بن سهل وزيره . وهو من هو فى تعصبه للفرس والشيعة العلوية ، ومحاربته سراً وجهراً لقادة العرب والقضاء على نفوذهم فى الدولة ؟ ؟

لا بد إذن من الرجوع إلى شعار العباسيين وسنتهم وأوضاعهم

(١) دار السلام من أسماء بغداد وفيه إشارة إلى قوله تعالى « لهم دار السلام عند ربهم » ومن أسمائها « مدينة المنصور » و « الزوراء » و « دار الخلافة »

وله في ذلك مندوحة أي مندوحة ليطفىء هذه الفتنة الشعواء وليعيد الأمور إلى نصابها بعد ما اضطرب حبلها ومثل خطرها .

* * *

رجع المأمون إلى شعار آبائه فخلع الملابس الخضراء ، ولبس الملابس السوداء ، وقلده في ذلك وزراؤه وقواده ورجال دولته . ولم ير الفرس في ذلك غضاضة لأنهم يحبونه ويثقون بمحبته لهم ، واحترامه لكبارهم ، وهم أخواله وأنصاره .

أما الفضل بن سهل فقد رأى المأمون ألا يصحبه إلى العراق في موكبه ، وفي هذه الفتنة التي يعتبره العراقيون عاملها الأول ، ولولا أعماله ما وقع ما وقع ولولاه ما فكر المأمون فيما فكر فيه، ولما أقدم على ما أقدم عليه من الخروج على سنة آبائه ، والميل إلى ولاء العلويين .

خرج المأمون في موكبه الضخم إلى العراق وأشار على الفضل أن يذهب إلى مسقط رأسه « سرخس » وأن يقيم فيها مدة حتى تهدأ الحال وتستتب الأمور فيبعث إليه بالحضور إلى بغداد . واستصحب المأمون أخاه أبا اسحق المعتصم ، وابنه العباس ، وكاتبه عمرو بن مسعدة ، وقاضي القضاة يحيي بن أكثم ، وأحمد بن أبي خالد الأحول ، واسحق الموصلي ، وغيرهم من خاصة رجاله وحاشيته وأعيان دولته .

وسافر الفضل بن سهل إلى « سرخس » وكان له فيها قصر كبير ، فأقام به أياماً ، وبينما كان جالساً فى وقت الغروب يلعب الشطرنج مع بعض أهله إذ فاجأه أربعة رجال يحملون السيوف ، فهم إليهم بسيفه فدافعهم ، ودافعوه حتى ضعف عن مقاومتهم فلجأ إلى الحمام وأغلقه عليه ، فاقتحموا بابه ، وتعاوروه بالسيوف حتى قتلوه ، وكان يصيح :

— قتلنى غلمان أمير المؤمنين . . . قتلنى غلمان المأمون ! .

وكان هولاء الغلمان : غالب السعودى ، وفرخ الديلمى ، وقسطنطين العربى ، وموفق الصقلبى .

زواج سياسى

وصل موكب المأمون إلى « الرقة » فى طريقه إلى بغداد فأقام بعض الوقت ليستريح ، فجاءه من سرخس فارس ينبئه بمقتل الفضل بن سهل ، بأيدى غلمانه الأربعة فتظاهر بالحزن والأسى وقال عمرو بن مسعدة :

— أرى أن يقتل هؤلاء الغلمان ، فإنهم إن بقوا سلوا على أمير المرمنين ألسنة الناس ، ولا نأمن أن يسلوا عليه سيوف خراسان .

فقال المأمون :

- نعم الرأى ما رأيت . . .

وأمر بقتلهم فقتلوا . ثم بعث إلى الحسن بن سهل ، وكان وقتئذ فى « واسط » فحضر وأقامه فى الوزارة مقام أخيه حتى لا يغضب الخراسانيون . وكان الحسن بن سهل قبل أن يلى الوزارة من أكبر قواد المأمون ، وكان أديباً فصيحاً ، ذا رأى وحزم ورجاحة عقل غير متعصب تعصب أخيه للعلويين وإن كان متشيعاً لهم كغيره من الفرس وقد قاد الجيوش وحارب إبرهيم بن المهدى ، وأصيب أثناء ذلك بمرض السوداء « النورستانيا » فتغير عقله حتى شد فى الحديد وحبس فى بيته زمناً وخلفه على العسكر أحد قواده ثم شفى ، فاستدعاه المأمون بعد مقتل أخيه وشمله برعايته وعطفه وأعلى مكانه فى دولته ، ووهب له أموالا كثيرة وأقطعه « فم الصلح » . !

وأراد أن يزيد فى إكرامه فخطب ابنته خديجة المسماة « بوران »[١] سنة ٢٠٣ ھ وكانت وقتئذ فى الحادية عشرة من عمرها ، فأجل البناء بها . وهى من أجمل نساء عصرها وأكثرهن ذكاء وفصاحة وفتوناً .

وكذلك أراد المأمون أن يرضى الفرس والعرب معاً وأن يجمع

---

(١) بوران اسمها الفارسى وقد ولدت سنة ١٩٢ھ وزفت إلى المأمون سنة ٢١٠ھ وماتت سنة ٢٧١ھ فى زمن المعتضد ولها من العمر ٧٩ سنة

حوله الفريقين ، وما كاد موكبه يبرح « الرقة » إلى بغداد حتى جاءته الأنباء بنصر قائده حميد بن عبد الحميد على إبرهيم بن المهدى وفراره من بغداد .

فى بغداد

اغتبط المأمون بهذه البشرى وتفاءل برحيله إلى بغداد ظافراً منصوراً وشد رحاله مسرعاً إلى عاصمة الدولة ، وعروس المشرق ، ودخلها فى موكب فخم يحف به القواد والفرسان ، ويتقدمه الجنود بالأعلام والطبول ومن ورائه طوائف الفرس والعرب فى مشهد رائع بديع .

ووصل الموكب إلى « قصر الخلد » — قصر الخلافة — وكان مشيداً على الشاطىء الغربى من دجلة ، وأقيمت فيه أريكة[1] فخمة جلس عليها المأمون بملابسه السوداء ، وعليه بردة الخلافة وبيده الخاتم والقضيب ، وعلى رأسه عمامة سوداء فى مقدمتها طرة من أسلاك الذهب كعرف الطاووس ، ووقف وراءه وحوله الحراس يحملون السيوف والنشاب ، وجلس على يمينه أخوه أبو إسحق المعتصم ، وابنه أبو العباس ، وعن

(١) سبق وصف هذه الأريكة ووصف قاعة العرش فى هذا الكتاب

يساره الحسن بن سهل ، وعمرو بن مسعده ، وأحمد بن أبى خالد وغيرهم من الوزراء والقواد .

ودخل عليه أخوه صالح بن الرشيد فحياه وهنأه وقال :

حمدنا الله شكراً إذ حبانا بنصرك يا أمير المؤمنينا
فأنت خليفة الرحمن حقا جمعت سماحة وجمعت دينا

فقال المأمون :

ــ أحسنت يا صالح . . . لمن هذان البيتان ؟

صالح :

ــ للحسين بن الضحاك .

المأمون :

ــ لقد أحسن وأجاد . . . ولكن لا شىء له عندنا .

أنبئنى يا صالح كيف رأيت الناس فى بغداد ؟

صالح :

ــ رأيتهم يا أمير المؤمنين فى كل مكان يتسابقون إلى موكبك ويتقاتلون على رؤيتك ، ويتنافسون فى تقبيل يدك ويهتفون فى حماسة باسمك ويقولون :

ــ المأمون أمير المؤمنين ــ لا طاعة لإبرهيم . . . !

فهز المأمون رأسه وقال :

. هذه نعمة جليلة أحمد الله عليها . ولكن لا يغرنك ما ترى

من نفاق الناس وتملقهم فطالما نافقوا الغالب وانفضوا عن المغلوب . أو لم يكونوا بالأمس يهتفون لإبرهيم بن المهدى وينادونه بالخلافة ويسندون له كل فضل ويلقبونه « المبارك » .

ولكن هكذا الدنيا يا صالح ، وهكذا الناس . . . ،

صالح :

ــ صدقت يا أمير المؤمنين . . .

* * *

واستأذن دينار بن عبدالله على المأمون فسأله .

المأمون :

ــ ما وراءك يا دينار . . هل قبضت على إبرهيم بن المهدى ؟

دينار :

ــ لن يفلت أبداً من جنود أمير المؤمنين ، وقد بعثت وراءه من يقبض عليه فى العراق والشام .

المأمون :

ــ سوف لا يفلت إن شاءالله . وأرجو أن تأتونى به حياً ولا تقتلوه ولا تمسوه بسوء . . !

دينار :

ــ سمعاً وطاعة لأمير المؤمنين .

فقال العباس بن المأمون :

— يا أمير المؤمنين .. إن إبرهيم خائن لك ، وقد طمع فيك وخلعك ، والرأى عندى أن يقتل أينما وجد . . !

المأمون :

— هون عليك يا عباس . . .

العباس :

— لست تأمن يا أمير المؤمنين أن يعود إبرهيم لمثل ما فعل ، فيسبب لك المتاعب . . .

المأمون :

— صدقت يا بنى ولكن من أراد الملك فليوطد نفسه على المتاعب .

زبيدة

وبينما هم فى المجلس إذ دخل الحاجب « فتح » يقول :

— أم جعفر زبيدة يا أمير المؤمنين .

فقام المأمون إجلالا لزوجة الرشيد وحفيدة أبى جعفر المنصور وصرف من حوله من الوزراء والرجال وبقى أخواه المعتصم وصالح وابنه العباس .

ودخلت زبيدة وبصحبتها علية بنت المهدى عمة المأمون . وكانت منذ قتل ابنها الأمين معتكفة فى قصرها « دار القرار » على شاطئ دجلة حتى إذا أقبل المأمون جاءت لتحييه وتفضى إليه بما فى نفسها ، فلما دخلت قال المأمون :

ـــ حياك الله يا أماه ... كيف حالك ؟

زبيدة :

ـــ حيا الله أمير المؤمنين ، وأبقاه للدين والدنيا .

المأمون :

ـــ رحم الله أبى وأخى وأبقاك يا أماه ، فوالله ما كنت أرجو أن يقتل الأمين ، فعلها طاهر بن الحسين قاتله الله ففجعنا فيه ، وسل علينا سيوف الناس وألسنتهم. وما أمرناه إلا أن يبعث به به أسيراً فبعث به عقيراً . . .

زبيدة :

ـــ ما علمت عنك سوءاً يا أمير المؤمنين . ولقد كنت أعرف حبك لأخيك وبرك به . وقد فعلها «ابن الحسين» حقاً وما كان يبالى بتضرعى وشفاعتى عنده ، وأعرض عنى .

وأخرجنى مكشوفة الوجه حاسراً

وأنهب أموالى وأحرق آدرى

المأمون :

ـــ هذا قضاء الله نفذ ولا راد لقضائه ، ولا معقب لحكمه و نى للك فى البر بالمحل الذى كان فيه الأمين .

زبيدة :

وقلت لريب الدهر إن هلكت يدُ
فقد بقيت والحمد لله لى يـــدُ
إذا بقى المأمون لى ، فالرشيد لى
ولى جعفر[١] لم يفقـــدا ومحمـــد

المأمون :

ـــ أبقاك الله يا أماه . وإنك عندى بالمنزلة التى كانت عند أبى وجدى فسلى ما شئت .

زبيدة :

ـــ يا أمير المؤمنين نحن عرب ، وللعرب رحم ونسب ، فأنظر إلى عرب العراق والشام ، كما نظرت إلى عجم خراسان .

المأمون :

ـــ والله يا أماه ما نزلت قيس عن ظهور الخيل إلا وأنا أرى أنه لم يبق فى بيت مالى درهم واحد ، وأما اليمن فما أحببتها ، ولا

(١) جعفر بن أبى جعفر المنصور والدها وكان المنصور يحبها ويدللها وهو الذى سماها زبيدة . وهذان البيتان من شعر أبى العتاهية على لسان زبيدة بعد قتل الأمين .

أحبتني قط ، وأما قضاعة فإن سادتها تنتظر السفيانى وخروجه فتكون من الشيعة ، وأما ربيعة فساخطة على الله عز وجل منذ بعث نبيه من مضر .

زبيدة :

ــ يا أمير المؤمنين قد عرفت بالحكمة والكياسة والعدل ، وقد مات الرشيد وما مات حتى كان العرب راضين عنه ، فانظر إلى ما يرضى العرب كما نظرت إلى العجم .

المأمون :

ــ أفعل إن شاء الله .

وتناولت زبيدة حلة الخلافة التى كان يلبسها الرشيد فى حياته ، وكانت تحملها إحدى وصيفاتها ، فقدمتها للمأمون هدية وتذكاراً جميلا ، فتناولها مسروراً وشكر لها هذه الهدية النفيسة ، واستأذنت وخرجت مع علية مودعتين منه أجمل وداع وما كادتا تبعدان حتى بعث المأمون فى طلب عمرو بن مسعدة ، فأقبل مسرعاً ، فأراه حلة الرشيد ، وحدثه عما جرى بينه وبين زبيدة ، فقال عمرو :

ــ لقد نصحت أم جعفر والله يا أمير المؤمنين . ومثلك فوق نصح الناصحين .

قال المأمون :

— وفقنى الله . . . وكيف حال بغداد اليوم يا بن مسعدة ؟

عمرو :

أصبحت الأمة فى غبطـــة   من أمر دنياها ومن دينها
إذ حفظت عهد إمام الهدى   خير بنى حواء مأمونهـــا
على شفا كانت فلما وفت   تخلصت من سوء تحيينها
ألا تراها كيف بعد الردى   وفقها   الله   لتزيينهـــا

قال المأمون :

— أحسنت يا بن مسعدة ، وبارك الله لك . . .

الفشل

فشل إبرهيم بن المهدى وفر من بغداد بعد هزيمته أمام جيش المأمون بقيادة حميد بن عبد الحميد ، وقد ضيق عليه حميد منافذ السبل وبعث وراءه الجنود فى كل مكان وبث دينار بن عبدالله العيون فى الصحارى والبلدان . فلم يستطع أن يبرح العراق إلى بلد آخر ، فاختفى بالمدائن[1] فى ألوان وطرق شتى من الاختفاء وذات يوم ضاقت به الحال . وكان يوماً صائفاً شديد القيظ ،

(١) المدائن مدينة بالقرب من بغداد كان فيها إيوان كسرى ، وسميت بهذا الجمع لما كانت عليه من سعة وضخامة كأنها عدة مدن

فسار متنكراً إلى زقاق لا منفذ فيه فصادف رجلا أسود واقفاً على باب دار له فالتفت إليه وهو خائف يترقب وقال :

— أعندك موضع أقيم فيه ساعة ؟

فنظر الأسود إليه نظرة فاحصة ، وقال :

— نعم . . . وعلى الرحب والسعة . . .

وفتح الباب ووسع له ، فدخل إبرهيم إلى بيت فيه حصير نظيف ووسادة وحشية جلد نظيفتان ، فجلس عليها ولكن الأسود لم يجلس .

فدعاه إبرهيم للجلوس فأبى ، وقال :

— إنى خارج لبعض شأنى . . ولينتظر سيدى قليلا . . .

وتركه وخرج وأغلق الباب عليه فأوجس إبرهيم فى نفسه خيفة ، وأيقن أنه يمكر به وأنه ذاهب ليدل عليه العسكر ليفوز بجائزة المأمون، فقد جعل لمن دل عليه مائة ألف درهم . . !

وما كان باستطاعة إبرهيم أن يفر من هذه الدار فقد أغلق الأسود الباب إغلاقاً محكماً ، وأخذ معه مفتاحها فزاد خوف إبرهيم ، ومضت مدة يسيرة ، ولكنها كانت طويلة بما فيها من فزع وأوهام .

وأقبل الأسود يحمل طبقاً فوقه كل ما يشتهى من خبز ولحم وقد جلب معه قدراً جديدة ، وجرة وكيزاناً نظيفة وقال لإبرهيم :

— جعلني الله فداءك يا سيدى .. إنى رجل حجام ، وأعلم أنك تتقزز مما أتولاه من الحجامة ، فشأنك بما لم أمسسه أو تقع عليه يدى لتصنع به طعامك .

فدهش إبرهيم لكرم هذا الرجل ومرءوته وقام فطهى طعامه ، وكانت به حاجة إليه شديدة ، وتناول منه ما اشتهى حتى إذا فرغ ، تقدم الأسود فقال له :

— هل لك يا سيدى فى شىء من النبيذ ؟

قال إبرهيم :

— ما أكره ذلك . . جزيت خيراً .

فأتى بآنية نظيفة ، وكأس نظيفة ، وقدم له نبيذاً حسناً ، ثم انتحى ناحية أخرى وأتى بنبيذ آخر وقال :

— أتأذن لى ياسيدى — جعلنى الله فداءك — أن أقعد ناحية منك فأشرب مسروراً بك ؟ !

فعجب الرجل من رقته وأدبه ، وأجاب :

— نعم . وهنيئاً لك ، وطبت نفساً . . .

فأخذا يشربان . . حتى إذا تناول الأسود ثلاثاً قام فأخرج من خزانته عوداً ، وقال لإبرهيم .

— يا سيدى ليس من قدرى أن أسألك أن تغنى ، ولكن قد

وجبت عليك حرمتى ، فإن رأيت أن تشرف عبدك بأن تغنيه فعلت .

فبهت إبرهيم وقال له :

ــ وكيف توهمت أنى أحسن الغناء ؟ . . .

فابتسم الأسود وقال :

ــ يا سبحان الله . . . أهذا مبلغ ظنك بى ؟ أفلم أعرفك يا سيدى إبرهيم ، وأنت القمر لا يخفى على رائيه ، والمسك لا يغيب شذاه عن عارفيه ؟

فأسقط فى يد إبرهيم بن المهدى وقال :

ــ وهل تبغى أن تبيع مروءتك معى بعرض الدنيا ؟

ــ أستغفر الله وأستغفرك يا سيدى إن كنت قد قصرت فى حقك أو أردت بك سوءاً . . . ولكنى ما توهمت يوماً أن تشرفنى فى منزل وتسعدنى بهذه الضيافة . فإذا شئت زدتنى من كرمك ، وأسمعتنى شيئاً من جميل غنائك فإنى رجل أعشق الغناء ، وأعجب بك

فتناول إبرهيم العود ، وقال :

ــ حباً وكرامة . . لك ما طلبت . . !

وما كاد يعزف إبرهيم على العود حتى قال الأسود :

ــ أتأذن لى يا سيدى أن تغنى ما أقترحه عليك ؟

فقال إبرهيم :

ـــ هات ما شئت ...

فاقترح ثلاثة أدوار من أصوات إبرهيم ، فقال له :

ـــ ومن أين عرفت هذه الأصوات ؟

قال الأسود :

ـــ كنت أخدم إبرهيم الموصلى ، فسمعته يثنى عليك ، ويذكرك بهذه الأصوات ذكراً طيباً .

فابتسم إبرهيم مغتبطاً وشرع يغنى هذه الأدوار . حتى انتهى منها ، فقال الأسود :

ـــ بحياتك عندى يا سيدى إلا غنيت شيئاً من شعر مجنون ليلى .

فسكت إبرهيم برهة ثم بدا عليه الشجو والأسى فأنشد :

جرى السيل فاستبكانى السيل إذ جرى
وفاضت له من مقلتى غروب

وما ذاك إلا حين أيقنت أنه
يكون بواد أنت منه قريب

يكون أجاجاً دونكم فإذا انتهى
إليكم تلقى طيبكم فيطيب

فيا سكنى أكناف نخلة كلكم
إلى القلب من أجل الحبيب حبيب

أظل غريب الدار فى أرض عامر
إلى كل مهجور هنـــاك غريب
ولا خير فى الدنيا إذا أنت لم تزر
حبيباً ولم يطرق إليك حبيب

ومكث مع صاحبه فى شرب وغناء إلى ساعة متأخرة من الليل ثم أراد أن يخرج من عنده ، وكان يحمل معه « خريطة » فيها دنانير ، فقال للأسود : « خذها فاصرفها فى بعض شأنك . ولك عندنا مزيد إن شاء الله » .

فقال الأسود :

— ما أعجب هذا . . . والله يا سيدى لقد هممت أن أعرض عليك جملة ما عندى من مال ، وأسألك أن تقبلها تفضلا منك وكرماً ، ثم أجللتك عن ذلك . . . !

فخجل إبرهيم وقال :

— قتلتنى والله كرماً وأدباً ومروءة .

وخرج من عنده مودعاً وهو يتمنى له أحسن ما يتمنى من أمن وسلام .

* * *

وكان إبرهيم يتنكر بألوان شتى من التنكر حتى لا يعرفه عيون المأمون المنبثون فى كل سبيل ، فما كاد يبرح دار الأسود

حتى اشتبه فيه جندى من الشرطة ، فسار وراءه وشعر إبرهيم بهذا الجندى ، فسار حتى دخل الدار التى يختبيء بها فدخلها ، وأغلق بابها ، وكانت لرجل نبطى من أنباط المدائن كان يعرفة إبرهيم منذ عهد الرشيد، فلما لجأ إليه وسعه بمروءته وأخفى أمره عن الناس .

وقف الجندى يرقب الدار ورأى إبرهيم أن الرجل يريد أن يوقع به ، ويدل عليه حيث يقيم ، فانتظر حتى انشق النهار فأراد أن يفر من الدار ، ولكنه وجد الجندى ما يزال يرقبه ويتربص له ، ويفحص كل من خرج منها فتزيا بزى النساء وخرج مع امرأتين من دار النبطى .

سار إبرهيم بهذا الزى وسط هاتين المرأتين ، فرآهن الجندى فسار وراءهن حتى بعدن عن الدار ثم تقدم منهن ، وقال :

ــ من أنتن ومن أين جئتن ، وإلى أين تذهبن ؟

فتكلمت إحدى المرأتين بكلام تعللت فيه بعلات ، ثم تكلمت الأخرى بكلام مثله ، ثم سأل الجندى إبرهيم فبدا من صوته أنه صوت رجل ، فسأله الجندى واشتد فى سؤاله ، فأخرج إبرهيم خاتماً ثميناً ، وأعطاه إياه . فزادت ريبة الجندى وقال :

ــ هذا خاتم رجل له شأن . . !

فأخذه وأمر الثلاث أن يسرن معه إلى رئيس العسكر . فلما

وصلن أمر كلا منهن بالسفور فسفرت المرأتان وأبى إبرهيم أن يسفر عن وجهه فجذب حجابه رئيس العسكر فبدت لحيته ، وعرف أنه « إبرهيم بن المهدى » !

فقبض عليه وقيده بالأغلال وبعث إلى دينار بن عبدالله يخبره ذلك !

* * *

أقبل دينار — فى غبطة — مسرعاً ، فوجد إبرهيم مقبوضاً عليه مقيداً بالأغلال ، فساقه إلى ديوان المأمون ودخل مستأذناً فأذن له ، فركع وحيا أمير المؤمنين ، ثم قال :

— بشراك أمير المؤمنين فقد قبضنا على « ابن شكلة » إبرهيم ابن المهدى

المأمون :

— حسناً . . . أين هو ؟

دينار :

— هو مقيد ببابك يا أمير المؤمنين .

المأمون :

— حمداً لله الذى أظفرنى به . . . أدخله يا دينار .

فخرج دينار ليحضره ، فقال المعتصم :

ـ أرى يا أمير المؤمنين أن يقتل جزاء خروجه عليك وعصيانه أمرك .

وقال العباس :

ـ نعم يا أمير المؤمنين « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض » وقد خرج إبرهيم على الله ورسوله بالخروج عليك .

وهنا جاء دينار بإبرهيم بن المهدى يحجل فى قيوده وحوله الجنود شاهرين السيوف ، فلما رآه المأمون قال له :

ـ هيه يا إبرهيم . . . هيه يا إبرهيم . . . !

فقال إبرهيم :

ـ السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته .

المأمون :

ـ لا سلم الله عليك يا هذا . . .

إبرهيم :

ـ حفظك الله يا أمير المؤمنين ورعاك برعايته وكلأك بعنايته .

المأمون :

ـ لا حفظك الله يا إبرهيم ولا رعاك ولا كلأك ولا أنزلك

منزلا حسناً . . . لقد والله وقعت وأوقعك شر عملك ، وسوء تدبيرك .

إبرهيم :

— يا أمير المؤمنين أنشدك الله فإن لى أطفالا صغاراً ، وفراخاً ضعافاً . . . وأنا أولى عندك بالرحمة . . . !

المأمون :

— لا رحمك الله يا إبرهيم ، تذهب بين الناس فتعصى أمرى وتخرج على طاعتى ، وتثيرها فتنة عمياء ، وحرباً شعواء ، وتزعم أنك أحق بالخلافة من ولد الرشيد . . والله لأكاد أهم بقتلك . . !

إبرهيم :

— يا أمير المؤمنين قد أصبحت ولى ثأرى ، والقدرة تذهب الحفيظة . ومن مد له الغرور فى الأمل لم يؤمن عادية الدهر ، وقد جعلك الله فوق كل ذنب كما جعل كل ذى ذنب دونك ، فان تعاقب فبحقك ، وإن تعف فبفضلك .

المأمون :

— هيهات يا إبرهيم . هذا كلام سبقك به فحل بنى العاص ابن أمية وقارحهم « سعيد بن العاص » وهو يخاطب معاوية فى العفو عنه . . . !

إبرهيم :

— مه يا بن أخي ، وأنت أيضاً إن عفوت فقد سبقك فحل بني حرب ، وقارحهم إلى العفو « معاوية بن أبي سفيان » فلا تكن حالي عندك في ذلك أبعد من حال سعيد عند معاوية . فإنك أشرف منه . وأنا أشرف من سعيد وأنا أقرب إليك من سعيد إلى معاوية وإن أعظم الهجنة[1] أن تسبق « أمية » هاشما[2] إلى مكرمة . . . !

المأمون :

— صدقت ياعم . . . ولكن المعتصم ، والعباس أشارا عليّ بقتلك . . . ،

إبرهيم :

— أما حقيقة الرأي في السياسة وتدبير الملك فقد أشارا به عليك يا أمير المؤمنين ، وما غشاك إذ كان ما كان مني . ولكن الله عودك العفو ، وجنبك وضيع الانتقام .

المأمون :

— نعم وعفوت عنك ، ولكنك تذهب في ذمة وزيري أحمد ابن أبي خالد الأحول . . .

وأمر بفك أغلاله ونادى المأمون أحمد ، فقال له :

— خذه يا أحمد عندك ، فهو صديقك . . . وأنت أولى به .

---

(١) الهجنة : العيب (٢) يعني بني أمية وبني هاشم

قال أحمد :

ــ وما تغنى صداقتى عنه ، وأمير المؤمنين ساخط عليه وإن كنت لا أمتنع من قول الحق فيه .

فقال إبرهيم :

ــ يا أمير المومنين إن قتلتنى فقد قتلت الملوك قبلك أقل جرماً منى وإن عفوت عنى عفوت عمن لم يعف ملك قبلك عن مثله .

وفسكت المأمون ثم تمثل :

فلئن عفوت لأعفون جللا ولئن سطوت لأوهنن عظمى
قومى همو قتلوا أميم أخى فإذا رميت أصابنى سهمى

خذه يا أحمد عندك مكرماً . وقد عفوت عنه إلا أن يحدث حدثاً فراقبه وامنعه أن يأتى شرا .

بشرى

خرج إبرهيم بن المهدى مع أحمد بن أبى خالد . وبعد هنيهة دخل « فتح » حاجب المأمون يخبره أن رسولا من مصر يدعى « سالم بن بلمه » أرسله القائد عبدالله[1] بن طاهر يحمل بشرى

(١) هو ابن طاهر بن الحسين قائد المأمون الأكبر الذى هزم الأمين وخلعه . وكان عبد الله أديباً فصيحاً كريماً

دخوله مصر ، واستيلائه عليها .

فأذن له المأمون ، فدخل فحيا الخليفة ، فقال له :

ـ كيف حال ابن طاهر يا سالم ؟

ـ حال طيبة كما يحب أمير المؤمنين ويرضى ، فقد دخل مصر واستولى عليها .

ـ وهل قبض على واليها عبدالله بن الحكم .

ـ نعم يا مولاى ، وكان ابن طاهر قد حمل عليه حملة قاضية ، فتفرقت جنوده ، ووهنته جهوده ، وتشتت شمله ، فلجأ إلى الفسطاط فأغلق بابها عليه ، وعلى من بقى من رجاله ، فحاصره قائدك عبدالله أياماً فبعث إليه ابن الحكم بهدية !

فاحمر وجه المأمون وحملق فى وجه سالم وقال فى غير تريث :

ـ وهل قبل الهدية ؟ ؟

ـ حاش لعبدالله يا أمير المؤمنين وهو وليك وقائدك، فقد جاءه رسول ابن الحكم بألف وصيف وألف وصيفة ، ومع كل منهم ألف دينار فأرسل إليه ابن طاهر يقول :

ـ لو كنت قبلت هديتك نهاراً لقبلتها ليلا « بل أنتم بهديتكم تفرحون . ارجع إليهم ، فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها . ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون ». فلما بلغ ذلك ابن الحكم بعث يطلب الأمان فأعطاه إياه ، وخرج مستسلماً . . . !

المأمون وقد التفت إلى وزرائه :

— لله ابن طاهر ولياً مخلصاً ، وقائداً مظفراً ، وأخاً وفياً ، والله لو كان مكانه عيسى[١] بن أبى خالد — قاتله الله — لنقض عهدى كما فعل بى عند إبرهيم بن المهدى فقد ذهب بخراجى وفيئى ، وزينت له الدنيا ، فأجلس إبرهيم خليفة ، وحارب دونه ، ودعاه مع الداعين « إبرهيم المبارك ، وأمير المؤمنين . ! »

ثم أعطى الرسول كتاباً يهنىء فيه عبدالله بهذا الفتح ويوليه مصر والشام والجزيرة . وكتب له فى أسفله :

أخى أنت ومولاى ومن أشكر نعماه
فما أحببت من شىء فإنى الدهر أهواه
وما تكره من شىء فإنى لست أرضاه
لك الله على ذاك لك الله لك الله

وكان صالح بن الرشيد جالساً فقال :

— لقد والله صح رأيك فى عبدالله . وفى وفائه لك وإخلاصه لأمرك ، فقد ذهب إليه رجل يدعو بالخلافة للقاسم[٢] بن إبرهيم ابن طباطبا العلوى ، ويذكر مناقبه وعلمه ، فقال له عبدالله :

— أتنصفنى أيها الرجل ؟

---

(١) هو الذى ناصر إبرهيم بن المهدى على المأمون وقد مر ذكره .
(٢) من ولد على بن أبى طالب

قال :

— نعم . . . !

فقال :

— هل يجب شكر الله على العباد ؟

قال :

— نعم . . . !

فقال :

— فهل يجب شكر بعضهم لبعض عند الإحسان والمنة والتفضل ؟

قال :

— نعم . . !

فقال :

— فتجىء إلى وأنا فى هذه الحالة التى ترى .. لى خاتم فى المشرق جائز ، وفى المغرب كذلك ، وفيما بينهما أمرى مطاع وقولى مقبول . ثم ما التفت يمينى وشمالى وورائى وقدامى إلا رأيت نعمة لرجل أنعمها على ، ومنة ختم بها رقبتى ، ويداً لائحة بيضاء ابتدأنى بها تفضلا وكرماً ، فتدعونى إلى الكفر بهذه النعمة وهذا الإحسان . وتقول اغدر بمن كان أولا لهذا وآخراً واسع فى إزالة خيط عنقه وسفك دمه . . . ! تراك لو دعوتنى إلى الجنة

عياناً من حيث أعلم أكان الله يحب أن أغدر به وأكفر احسانه ومنته وأنكث بيعته ؟ !

فسكت الرجل يا أمير المؤمنين ، فقال له عبدالله :

— أما أنه قد بلغني شأنك وتالله ما أخاف عليك إلا نفسك فارحل عن هذا البلد ، فإن السلطان الأعظم إن بلغه أمرك ، وما آمن من ذلك عليك، كنت الجانى على نفسك ونفس غيرك!

فقال المأمون :

— يا صالح . . ذلك غرس يدى . وإلف أدبي ، وترب نفسى . وما أشك يوماً فيما عهدته فيه من حب وولاء .

الفصل السادس

مصير الفنان

أعد أحمد بن أبى خالد الأحول داراً أنيقة لإبرهيم بن المهدى ليقيم فيها كما أمر المأمون، وليكون فى رعايته وتحت رقابته . فأقام بها موفور الراحة والتكريم، وأقامت معه جواريه : شارية ، وريق، ومكنونة ، وخالدة ، وصدوف ، ومعمعة ، وبعض غلمانه . وكان يزوره ابناه هبةالله وبقيةالله وبعض أصدقائه ويقضى وقته فى الأدب والغناء ثم فى التفكير فى مصيره بعد أن قضى عليه المأمون ، وأودعه عند أحمد بن أبى خالد كالمسجون وإن كانت له الحرية فى الخروج إلى فناء الدار وحديقتها والاجتماع بالناس .

وقد كان يرهقه هذا التفكير وكان الخوف من المأمون يقلقه ويتشاءم من نفسه ، ويرى أن اسم « ابراهيم » مشؤوم ، فما سمى به أحد إلا ناله من الشؤم نصيب ، فإبرهيم الخليل لقى من نمروز ما لقى وطرح فى النار ، وابرهيم بن محمد (ص) مات طفلا صغيراً ولم يعمر ، وإبرهيم الإمام قتله

مروان بن محمد خنقاً فى سجن حرّان ، وابرهيم بن الوليد خلع ، وابرهيم بن عبدالله بن الحسين العلوى قتله المنصور وعمه إبرهيم بن الحسين سقط عليه السجن فمات . ثم هو قد خلع من الخلافة وفشل فى ثورته وهزم أمام المأمون ، وقبض عليه وقيد بالأغلال واعتقل .. فأى مصير مشؤوم ينتظره إلا أن يكون الموت مهما تعلل بالآمال .

وجلس يائساً مبتئساً ، ثم دخلت عليه جاريته خالدة فرأته واجماً حزيناً ، فسألته عما به فلم يجبها فخرجت مشفقة عليه فناداها أن تأتى له بالعود . فذهبت وعادت تحمله فأخذه الشجو وجعل يغنى :

ذهبت من الدنيا وقد ذهبت منى
هوى الدهر بى عنها وولى بها عنى
فإن أبك نفسى أبك نفساً نفيسة
وإن أحتسبها احتسبها على ضنّ
وأفلتنى « عيسى » (١) وكانت خديعة
حللت بها مالكى وفلت بها سنى

وزاره أحمد بن يوسف أحد كتاب المأمون وصديق إبرهيم وكان أديباً راوية محدثاً ، فجعل إبرهيم يحدثه ومن حضر عنده

(١) عيسى بن أبي خالد خانه كما خان المأمون من قبل .

حديثاً من الشعر والغناء ؛ ويروى لهم طرائف بعضها يضحك وبعضها يعظ وأحمد بن يوسف ساكت حتى طال المجلس فقال أحد الحاضرين لابن يوسف :

— مالك لا تنبح يا كلب الروم . قد كنت نباحاً فما لك اليوم .

فتبسم إبرهيم بن المهدى وقال :

— لو كنت رأيتنى أنا فى حضرة جعفر بن يحيى البرمكى لرحمتنى كما رحمت أحمد منى . . !

* * *

وبينما هم كذلك إذا بمخارق المغنى يدخل وهو يترنم فدعاه إبرهيم للغناء ، فأبى وأبى الحاضرون إلا أن يسمعوا أمير الغناء إبرهيم فنادى جاريته فأحضرت آلات الموسيقى وجلس إبرهيم وحوله بعض جواريه يغنى فى قول أبى العتاهية :

قال لى أحمد ولم يدر ما بى　　أتحب الغداة عتبة حقاً

فتنفست ثم قلت نعم حبّ　　جرى فى العروق عرقاً فعرقاً

فطرب الحاضرون حتى خيل لهم أن الدار تهتز طرباً ، وأن الإيوان يسير بهم سيراً، فلما فرغ تقدم منه مخارق وقبل يده وقال :

— جعلنى الله فداءك يا سيدى . . هذا هو الغناء . . فأين أنا منك ؟ !

فقال إبرهيم :

ــ لولا أنى أرفع نفسى عن هذه الصناعة لأظهرت فيها ما يعلم الناس معه إنهم لم يروا مثلى . .

ونهض القوم ، وانفض المجلس ، ودخل إبرهيم إلى مخدعه . . وكان أحمد بن أبي خالد قد وكل به كبرى جواريه لتوفيه حقه فى الخدمة والإعظام وكانت تدعى « ميمونة » وهى من خيرة الجوارى الحسان فأقبلت تسأله فى رشاقة ولطف هل من حاجة لسيدها ، كما تفعل كل يوم ، فقد عنيت بخدمته وراحته واطمئنانه حتى جل مقدارها عنده وأحبها . فقال لها :

ــ نعم لى حاجة أيها المليحة الحسناء .

قالت فى استحياء :

ــ وما هى يا سيدى ؟

قال :

ــ أن تناولينى هذه الكأس .

فذهبت فى رفق وتقدمت تناوله ، وما كادت تقترب منه حتى خطف يدها ، فقبلها . . .

فاحمر وجهها خجلا وتأخرت وقبلت الأرض بين يديه احتراماً ، وخرجت مسرعة ، فقال إبرهيم .

يا غزالا لى إليه شافع من مقلتيـــه

والذى أجللت خديه فقبلت يديـــه
بأبى وجهك ما أكثر حسادى عليـــه
وأنا ضيف وجــزاء الضيف إحسان إليـــه

وجعل يترنم بهذه الأبيات .. !

* * *

مكث « إبرهيم » مدة فى دار أحمد بن أبى خالد يقضى وقته على هذه الحال ، وكان المأمون يسأل أحمد عنه ويتتبع أنباءه ، ويبعث إليه من يحادثه ، ويناظره حتى يقف على أغراضه وسريرة نفسه .

وذات ليلة خرج المأمون ومعه اسحاق الموصلى ، فمر بالدار التى يقيم فيها فسمعا فيها غناء ، فوقفا تحت جناحها فإذا إبرهيم يغنى فى حنان وشجن :

يا مشرع الماء قد شدت موارده
أما أليك سبيـــل غير مسدود
لحائم حـــام حتى لا حياة به
مشرد عن طريق الماء مطرود

فقال المأمون لإسحاق :

— إن صوت إبرهيم ليهزنى ويطربنى ، وما أريد أن يحبس عنى .

قال اسحاق :

ـ يا أمير المؤمنين إن إبرهيم يتمثل بما لم يقله ، ويغنى ما ليس له .

المأمون :

ـ ولمن هذا القول ؟ . . .

اسحاق :

ـ لعبدك اسحاق يا مولاى . . .

المأمون :

ـ أحسنت القول وأحسن هو الغناء . . والله يا اسحاق إنه لأعذب منك صوتاً ، وأجمل منك صنعة

اسحاق « فى غيظ يخفيه » :

ـ صدق أمير المؤمنين ، وان إبرهيم لأحسن الأنس والجن والطير صوتاً . . وحسبه هذا . . !

وعاد المأمون إلى قصر الخلد ، حتى إذا انبلج الصبح وارتفع النهار وجلس فى ديوانه ، أقبل رسول من إبرهيم إلى المأمون يحمل قصيدة من نظمه يستعطف فيها المأمون فلما قرأها ، قال :

ـ إن من الكلام ما يفوق الدرر ويغلب السحر ، وان كلام عمى منه . . اطلقوا عمى وردوا إليه ماله وأتونى به مكرماً . . .

فذهب أحمد بن أبي خالد غير متريث إلى إبرهيم وجاءه

بالبشرى وطلب إليه أن يسير معه إلى المأمون فنهض ولبس وتطيب ، ودخل عليه فسلم وقبل البساط فأجابه المأمون جواباً حسناً وقال :

– يا عم صر إلى المنادمة وارجع إلى الأنس ، فلن ترى منى أبداً إلا ما تحب .

فقال إبرهيم :

رددت مالى ولم تمنن علىَّ به
وقبل ردك مالى قد حقنت دمى
تعفو بعــدل وتسطو ان سطوت به
فلا عدمناك من عاف ومنتقم
فبؤت منك ، وقد كافأتها بيــد
هى الحياتان من موت ومن عدم

قال المأمون :

– اجلس يا عم آمناً مطمئناً فلن ترى منى ما تكره إلا أن تحدث حدثاً أو تتغير عن طاعة ، وأرجو أن لا يكون ذلك منك إن شاء الله .

* * *

عاد إبرهيم إلى حريته الأولى ، وعاد إلى حياته الفنية إلى حياة الأنس والطرب ، وقربه المأمون ووثق به ودخل على المأمون ذات

يوم مبتذلا فى ثياب المغنين وزيهم فلما رآه المأمون ضحك وقال :

ــ نزع عمى ثياب الكبر عن منكبيه . . !

وكان مخارق المغنى حاضراً المجلس فأذن له المأمون أن يغنى بحضرة إبرهيم فغنى أحد الأدوار فقال إبرهيم :

ــ أسأت وأخطأت يا مخارق .

قال المأمون :

ــ يا عم إن كان أساء وأخطأ ، فأحسن أنت .

فقام إبرهيم وجلس للغناء ، وغنى الدور حتى فرغ منه فقال المأمون :

ــ أحسنت والله يا عم . . .

فقال إبرهيم لمخارق :

ــ أعده الآن يا مخارق .

فأعاده فأحسن ، فقال إبرهيم :

ــ يا أمير المؤمنين كم بين الصوت الآن وبينه فى أول الأمر .

قال المأمون :

ــ ما أبعد ما بينهما . . !

فالتفت إبرهيم إلى مخارق وقال :

ــ إنما مثلك يا مخارق مثل الثوب الوشى الفاخر إذا تغافل عنه أهله سقط عليه الغبار فحال لونه فإذا نفض عاد إلى جوهره .

فابتسم المأمون وقال لإبرهيم :

— حدثنى يا عم . . .

قال إبرهيم :

— يا أمير المؤمنين لقد رأيت فى منامى بالأمس رؤيا عجباً .

فقال المأمون :

— وما هى ؟ ! . . .

قال :

— رأيت على بن أبى طالب فى النوم فمشينا حتى جئنا قنطرة ، فذهب يتقدمنى ، فأمسكت به ، وقلت له « إنما أنت رجل تدعى هذا الحق با مرأة ، ونحن أحق به منك »

فما رأيت له فى الجواب بلاغة كما يوصف عنه .

فقال المأمون :

— وأى شىء قال لك ؟

قال :

— ما زادنى يا أمير المؤمنين على أن قال « سلاما سلاماً » !

فضحك المأمون وقال :

— قد والله أجابك أبلغ جواب !

فقال إبرهيم :

— وكيف ذلك ؟ !

قال المأمون :

ـ عرفك أنك جاهل لا يجاوب مثلك . فقد قال الله عز وجل « وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » .. فخجل إبرهيم وسكت . . . وكذلك لم يفقد المأمون ميله للعلويين ورأيه فيهم على الرغم مما وقع من أحداث كادت تذهب بملكه ، وعلى الرغم مما شرعه من تدبير وسياسة جديدة منذ بارح « مرو » ووصل إلى بغداد ، فقد كانت سياسة أراد بها أن يرضى العرب ، ولكنها فى الوقت نفسه لا تغضب الفرس .. وكان الفرس يعرفون ميله للشيعة العلوية وإن كان قد قتل عميدهم الفضل بن سهل ، فقد رفع أخاه الحسن بن سهل وأكرمه وخطب ابنته « بوران » فأعلى نسبه وشرفه ، وضاعف له من التكريم والتمجيد بين الناس وهو تكريم للفرس بين العرب .

الفصل السابع

العرس

مضت على خطبة المأمون لبوران خديجة بنت الحسن بن سهل سبع سنوات .. وكانت سنة ٢١٠ هـ فبلغت الثامنة عشرة من عمرها ، واكتملت أنوثتها ، وتجلت غضارتها تجلى الأزهار فى نضارتها ، وتهادت فى موكب من الفتنة والشباب ، واختالت بها أيامه الساحرة ، وأعراسه الراقصة الباهرة .

وكان الحسن بن سهل قد بلغ عند المأمون من المكانة والكرامة وعلو الشأن وسعة الجاه ما لم يبلغه أحد من وزرائه وخاصة رجاله وذوى سلطانه .

وكان الحسن بن الضحاك الشاعر ما زال منبوذاً من المأمون طريداً من مجالسه ، فلما رأى الدنيا تقبل ضاحكة على الحسن ابن سهل جعل يتزلف إليه ، فيزجى إليه المديح بعد المديح فى القصيد تلو القصيد ويقول له فيما يقول :

أرى الآمال غير معرجات ... على أحد سوى الحسن بن سهل
يبارى يومه غـــده سماحاً ... كلا اليومين بان بكل فضل

أرى حسناً تقدم مستبداً ببعد من رياسته وقبل
سليل مزارب برعوا حلوماً وراح صغيرهم بسداد كهل
ليهنك أن ما أرجأت رشد وما أمضيت من قول وفعل

فقربه الحسن ودعاه ووصله ووعده بإصلاح ما بينه وبين المأمون . وصار ابن الضحاك أنيس مجالسه وأخا أدبه وفراغه ولذائذه .

وجالسه الحسن يوماً فقال له :

ــ يا حسين ماذا عنيت بقولك :

يا خلى الذرع [١] من شجنى إنما أشكو لترحمنى

فقال ابن الضحاك قد بينته فقلت :

منعك الميسور يؤنسنى وقليل اليأس يقتلنى

فقال الحسن :

ــ إنك لتضيع بالخلاعة ما أعطيته من البراعة . . !

فسكت ابن الضحاك ولم يتكلم قال الحسن :

ــ مالك يا حسين ؟

ابن الضحاك :

لا شيء يا سيدى وإنما أفكر فى براعة أضاعتها الخلاعة رحمها الله .

(١) يقال خلي الذرع وخالى الذرع أى قلبه خال من الهجوم

فضحك الحسن وكان اليوم من أيام الخريف وقد أقبل وسمى من المطر ، فرش رشا خفيفاً ، وكان الحسن متفائلا فجلس فى إيوان قصره ، وحوله الوصيفات يقمن على خدمته ووقف وراءه غلام حسن نضير فنظر ابن الضحاك إلى ذلك وأنشأ يقول :

ألست ترى ديمة تهطل   وهذا صباحك مستقبل

فقال الحسن بن سهل :

— بلى . . .

قال ابن الضحاك :

وتلك المدام وقد شاقنا   بطلعته الشادن الأكحل

فقال الحسن :

— صدقت . . !

ابن الضحاك :

وقد أشكل العيش فى يومنا   فيا حبذا عيشنا المشكل

فقال الحسن : « العيش مشكل » . فما ترى ؟ « قال ابن الضحاك :

— مبادرة القصف ، وتقريب الإلف .

قال الحسن :

— على أن تقيم معنا وتبيت عندنا . . !

فقال ابن الضحاك :

لك الوفاء ، وعليك مثله من الشرط . . .

قال :

— ما هو ؟

فقال ابن الضحاك :

— أن يسقيني هذا الغلام الواقف على رأسك .

فضحك الحسن وقال :

— ذلك لك .

ودعا بالطعام فأكلا وبالشراب فشربا أقداحاً . فلما ثمل ابن الضحاك قال :

وا بأبي أبيض في صفرة كأنه تبر من الفضة

صفاته فاتنه كلها فبعضه يذكرني بعضه

يا ليته زودني قبلة أولا ، فمن وجنته عضه

فقال الحسن :

— قد عمل فيك النبيذ يا ابن الضحاك !

ابن الضحاك :

— لا وحياتك . . .

الحسن :

— هذا شر من ذلك . . . قد وهبت لك الغلام خذه لا بارك الله لك فيه .

وأقام الحسين بن الضحاك على ولائه للحسن بن سهل وقد حاول أن يصلح أمره عند المأمون ، فلم يستطع لسوء رأيه فيه وانصراف هواه عنه . . .

* * *

وكان المأمون قد أقام الحسن على مدينة « فم الصلح [1] » وما يليها من فارس الأهواز . فلما أراد البناء ببوران سنة ٢١٠ ﻫ بارح بغداد إلى هذه المدينة

وكان العباس بن المأمون قد تقدم أباه ، فوصل ظهراً بزكبه إلى « فم الصلح » فتلقاه الحسن خارج عسكره فى موضع على شاطىء دجلة قد بنى فيه جوسقا . فلما رآه العباس ثنى رجله لينزل ، فحلف الحسن ألا يفعل وقال :

— بحق أمير المؤمنين لا تنزل . . .

واعتنقه وهو راكب وأنزله وجلس فى الجوسق ساعة هو ومن معه ، وقدم له غلمان الحسن شراب الفاكهة ثم قدم له الحسن بن سهل دابته فركبها وركب خلفه حتى وصل الركب إلى القصر .

وفى وقت الغروب خرج الحسن وحوله حاشيته وفرسانه وجنوده ليستقبلوا أمير المؤمنين ، وكان قد خرج من بغداد

(١) فم الصلح على نهر دجلة بالقرب من واسط

فى موكب فخم تتقدمه الطبول والموسيقى وحوله الفرسان بسيوفهم المشروعة وملابسهم الحريرية المزركشة وخيلهم المحلى بالديباج ، وأعلامهم العباسية السوداء الموشاة وخلفه الجنود يحملون الحراب وقد اصطحب معه أخاه أبو إسحاق المعتصم ، وعمه إبرهيم بن المهدى وأم جعفر زبيدة زوجة الرشيد وعمته عليه بنت المهدى ، وأخته حمدونه بنت الرشيد وطائفة من الأميرات والأمراء والوزراء وكبار رجال الدولة . وكان الحسن قد أقام مضارب فاخرة خارج العسكر بها أنوار تتلألأ ، وزينات باهرة ووصل الموكب فركع الحسن بن سهل ورجاله بين يدى الخليفة ثم تقدموا فحملوه إلى أن أجلسوه فى الجوسق وتوافد كبراء المدينة وأعيانها يحيون أمير المؤمنين ويؤكدون له الطاعة والولاء .

ثم سار الموكب إلى قصر فخم من قصور الحسن أعده لضيافة المأمون فنزله ، فرأى فيه ما شاء الله أن يرى من الأثاث والرياش والمتاع مما لا يباريه فى فخامته وأبهته ما كان فى إيوان كسرى أنو شروان من عظمة وجمال ، وألوان من زخارف النبات والحيوان .

* * *

وقد حوى القصر مئات من الوجوه الحسان ، والحور والولدان

وجلست إحداهن وتدعى « جنان » مع زميلات لها فى إحدى المقصورات وقد تحجبن عن الأنظار ، فقالت :

— طوبى لبوران هذا الحظ الميمون ما أسعدها تتزوج أمير المؤمنين المأمون !

فقالت الثانية وتدعى « جوهرة » :

— وهل لسيدتى بوران كفء غير أمير المؤمنين يا جنان فهى أجمل فتيات خراسان .

ليس فيهـــا ما يقال له كملت لو أن ذا كملا
كل جزء من ملاحتهـــا كائن من حسنها مثلا

قالت الثالثة وتدعى « خلوب » :

— أصبت يا جوهرة ، فالجمال يسبى القلوب .

فقالت الرابعة وهى « خالصة » :

— وهل فى ذلك شك يا خلوب .

جنان :

— على رسلك يا خالصة إن بوران جميلة ولكنها ناقصة . فهى غادة من غادات الأعاجم . وليست من كرائم بنى هاشم

جوهرة :

— وهل يعيبها ذلك يا جنان .. إن لم تكن لهاشم فهى لكسرى أنو شروان .

جنان :

— ما أجهلك يا جوهرة . إن فى الجوارى غفلة مستنكرة فوالله ما هذا الزواج إلا أمراً مدبراً وثمناً مقدراً .

جوهرة :

— كفى كفى . . . لماذا يا ترى ؟

جنان :

— لرأس الفضل بن سهل .

خالصة :

— صه . . صه . . إن غلمان أمير المؤمنين عن كثب . !

* * *

وهنا مر إبرهيم بن المهدى ، وكان وافداً لمقابلة أمير المؤمنين فى القصر استجابة لدعوته فأجفلت الجوارى وهن يظننه أمير المؤمنين فلمحته جنان وعرفته ، فعادت ونادت زميلاتها ، فأقبلن عليه وهن يقان :

— حياك الله يا أبا إسحاق . . ماذا أتى بك إلينا كأننا على ميعاد . . !

فقال إبرهيم :

— حيا كن الله وبيا كن أيتها الجوارى الحسان .. ماذاتفعلن؟

وأخذ يداعبهن ، وأخذن يداعبنه . فقال لجنان :

— كأنى بأبى نواس يقول فيك ما قاله يوم كنت جارية لآل الثقفى ورآك فى عرس فقال :

شهدت جلوة العروس جنان فاستمالت بحسنها النظارة
حسبوها العروس حين رأوها ما دهانا بها سواك عمارة[١]

فقالت جنان :

— رحم الله أبا نواس كان لى محباً وكنت عليه قاسية لقد بعث إلى رسوله فقلت له « لا برح الهجران ربعك ولا بلغت أملك ممن أحببت . . » !

فضحك إبرهيم وقال :

— ولقد استجاب الله دعاءك . . . !

ثم التفت إلى خالصة ، وكان معها ثلاث نرجسات قد زينت بها صدرها فداعبها بيده ، وقال :

ثلاث عيون من النرجس على قائم أخضر أملس
تذكرنى طيب ريا الحبيب فتمنعنى لذة المجلس

وضحك إبرهيم وتضاحك الجوارى . ثم بارحهن إلى داخل القصر ، وبقين فى مكانهن صامتات فقالت جوهرة :

— ما أجمل إبرهيم له عينان خلابتان وقامة كغصن البان ما أحلاه يا جنان .

---

(١) عماره هى زوجة عبد الرحمن الثقفى ومو لاتها

جنان :

– أسكتى يا ألعبان يا صنيعة الشيطان .

وبينما هن كذلك إذ سمعن أصوات الغلمان يقولون :

– أمير المؤمنين المأمون . . .

وكان المأمون يمر بالقصر ، فأجفلن ، ودخلن إلى الغرف مسرعات !

الزفاف

وكانت ليلة الزفاف ليلة عامرة باهرة « كأن كل سرور حاضر فيها » . . فازدانت مدينة فم الصلح زينة لم تر الدنيا مثلها ، وزهت قصور الحسن بن سهل بأنواع المسرات والزخارف والأنوار . وقام على خدمة هذا العرس ثلاثة آلاف وستمائة خادم وملاح . وبدا القصر الذى نزله المأمون فى لألائه وبهائه ، كأنه الثريا فى سمائها ، والنجوم نزلت من عليائها ، وقد فرشت بالبسط الموشاة بالذهب والجواهر النفيسة . وأضيئت فى جوانب الدار شموع من العنبر والند والمسك المعجون ، ووضعت فى قاعة الزفاف شمعة من العنبر وزنها ٢٨٠ مثقالا أى « اثنتان وأربعون أقة » .

وفرشت هذه القاعة ببساط ذهبى بديع ونثرت عليه الدرر ، ودخل المأمون مع عروسه ، وحولها بنو هاشم وبنو الحسن بن

سهل والأعيان والقواد وكرائم الفتيات والنساء . ولما رأى المأمون ، هذا البساط وما عليه من درر منثورة قال :

— رحم الله أبا نواس كأنه قد رأى هذا حيث يقول :

كأن صغرى وكبرى من فقاقعها
حصباء در على أرض من الذهب

وقد نثر الحسن بن سهل فى ذلك العرس من الأموال ما لم ينثره ملك فى جاهلية ولا إسلام كما نثر على الحاضرات والحاضرين بنادق مسك فيها رقاع بأسماء ضياع وأسماء جوار وصفات جياد وغير ذلك فكانت البندقة إذا وقعت فى يد أحدهم فتحها فقرأ ما فيها فيجد على قدر حظه ، فيمضى إلى الوكيل الذى نصب لذلك فيقول له : « ضيعة يقال لها كذا » أو « جارية يقال لها فلانة » أو « جواد يقال له كذا » ثم نثر على سائر طبقات الناس آلاف الدراهم والدنانير ونوافج المسك ، وبيض العنبر — عدا ما أنفقه المأمون على القواد والأجناد ، وسائر أهل المدينة ، وقد بلغت نفقات هذا العرس خمسة ملايين درهم (أى نحو مائة ألف جنيه مصرى) .

* * *

وجلس المأمون مع عروسه على عرش منصوب فى صدر القاعة صنع من الأبنوس والديباج والحرير الموشى وحلى بالجواهر

النفيسة ثم أقبل إبرهيم بن المهدى ووراءه عدد من العازفين والعازفات من الغلمان والجوارى الحسان . وجلس على منصة فى وسط القاعة . وأخذ يغنى :

يا خير من ذملت يمانية به بعد الرسول لآيس أو طامع
وأبر من عبدالإله على الهدى نفساً وأحكمه بحق صارع
أحياك من ولاك أطول مدة ورمى عدوك فى الوتين بقاطع
إن الذى قسم الفضائل حازها فى صلب آدم للإمام السابع[١]

فقال المأمون :

— أحسنت يا عم ، وأحييت لى طرباً ، وزدتنى هناء بارك الله لك .

ثم وقف الشاعر إبرهيم بن العباس الصولى وهنأ الحسن بن سهل بما حاز من شرف لمصاهرة الخليفة المأمون فقال :

ليهنك أصهار أذلت بعزها
خدوداً وجدعت الأنوف الرواغما
جمعت بهـا الشملين من آل هاشم
وحزت بها للأكرمـين المكارما
بنوك غدوا آل النبي ووارثوا الـ
خلافـة والحاوون كسرى وهاشما

(١) المأمون هو سابع خليفة من خلفاء بنى العباس .

فقال الحسن :

ــ أحسن الله جزاءك أبا إسحاق ، فما الكثير من فعلنا بجزاء لليسير من حقك . . !

ثم قام محمد بن حازم الباهلى فقال :

بارك الله للحسن ولبوران فى الختن
يا بن هرون قد ظفر ت ولكن ببنت من

فقال المأمون :

ــ والله ما ندرى خيراً أراد أم شراً . . .

ثم قامت الراقصات فرقصن على عزف الموسيقى وهن ينشدن من شعر بشار :

يا ليلتى تزداد بشرا من حب من أحببت بكرا
حوراء إن نظرت إلـ يك سقتك بالعينين خمرا
وكأن رجـــع حديثها قطع الرياض كسين زهرا
وكأن تحت لسانهـــا هاروت ينفث فيه سحرا
وتخال ما جمعت علـــ يه ثيابها ذهبا وعطرا

وبعد أن انتهت الراقصات عاد إبرهيم بن المهدى فغنى لمروان بن أبى حفصة هذه الأبيات :

طرقتك زائرة فحى خيالهـــا بيضاء تخلط بالجمال دلالها
قادت فؤادك فاستقاد ومثلها قاد القلوب إلى الصبا فأمالها

هل تطمسون من السماء نجومها
بأكفكم أو تسترون هلالها
أو تجحدون مقالة من ربكم
جبريل بلغها النبي فقالها
شهدت من الأنفال آخر آية(١)
بتراثهم فأردتم إبطالها

فأجاد إبرهيم الغناء . وكان المأمون يحب إنشادها وغناءها فقال له :

ـ أحسنت يا عم ما لم يحسنه سواك .

وبقى العرس عامراً بألوان الزينة والطرب ولذائذ الحياة التى لم تر الدنيا مثلها ، حتى انتهى ، وترك وراءه ذكراً خالداً لأروع عرس فى هذا العصر الذهبي العجيب !

استمر إبرهيم مخلصاً للخليفة المأمون موالياً له وكان يحبه وينزله عنده منزلا رفيعاً ، وكانت أيام إبرهيم فى ذلك الحين أعراساً للفن والأنس والإبداع .

(١) يريد قوله تعالى « أولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله » وهذه الأبيات من قصيدة لمروان بن أبى حفصة مدح بها الخليفة المهدى، فكان لفرط إعجابه يزحف حين إنشادها من منصته كلما سمع بيتاً حتى صار على البساط وكانت مائة بيت فأجازه المهدى بمائة ألف درهم ، فكانت أول مائة ألف أعطيها شاعر فى أيام بنى العباس وقد لحنها إبرهيم بن المهدى

* * *

ومرض المأمون وتوفى سنة ٢١٨ هـ فحزن عليه إبرهيم حزناً شديداً ، ولم يعمر بعده طويلا إذ مرض بعد سبع سنين من وفاته بمدينة « سر من رأى » فلما تداعت حياته ، وأشرفت على النهاية جعل يتندم ويذكر ما سلف من شرابه ولذاته وغنائه ولهوه ، فقيل له :

— تب يا إبرهيم واحرق دفاتر الغناء . . !

فحرك رأسه وهو على فراشه ، وقال :

— يا مجانين هبوا أنى أحرقت دفاتر الغناء كلها . . ريق إيش أعمل بها . . هل أقتلها ، وهى تحفظ لى كل شيء فى دفاتر الغناء ؟ !

وقد مات[1] إبرهيم ، فحسب الناس أنه لم يمت لمكانته فى نفوسهم ، ولما أحدث فى أذهانهم وآذانهم من ثورة غنائية لا تفنى ولا يمحى صداها حتى كانوا يقولون :

« إن إبرهيم لم يمت . وإنما دعى إلى الجنة لأن بالجنة عرسا . . ! »

لقد بدأ إبرهيم أميراً وفناناً ، وانتهى أميراً وفناناً وكان بين

---

(١) مات ابرهيم بن المهدى سنة ٢٢٤ وقيل سنة ٢٢٥ فى عهد المعتصم وعمره نحو ٦٢ سنة

ذلك فناناً ثائراً ، ومحارباً ثائراً ، ثار على الفن وللفن ، وثار على الخلافة وللخلافة وتزعم ثورة التجديد فى الغناء والموسيقى ، وقاد ثورة العراق على المأمون ، وارتدى بردة الخلافة وتبوأ عرش الملك ، وقدر له أن يجلس فترة من الزمان على أريكة هرون الرشيد . ولكن هذا العرش لم يدم له طويلا ، لأنه عرش صنعته السياسة ، وصنعته الأحداث ، ولعبت به الأهواء .

أما عرش الفن ، فهو أقوى مكاناً ، وأرسخ بنياناً ، وأثبت على الأيام أساساً ، تبوأه إبرهيم ، فلم تزعزعه سخائم الخصوم ، ولم يعمل فيه حسد الحاسدين ، بل بقى له وبقى هو سيداً عليه طول الزمان . وكان كما قال يغنى كما يشاء ، ويبدع ما يشاء فاعتزت به دولة الموسيقى والغناء . وخلد ذكره بين الخالدين من أهل الفن والأدب ، واعلام الأنس والطرب . وعاش حياته اميراً فى فنه ، اميراً فى نسبه ، اميراً فى متاعه ، اميراً فى ترفعه وعزة نفسه ، حتى فارق هذه الحياة وأطفأ الموت نوره ، وكأنما أطفأ انوار عرس من الأعراس

قصص من ألف ليلة للأطفال

بقلم الأستاذ كامل كيلانى



دار المعارف بمصر



أولادنا
عمرون شاه
أولادنا
مملكة السحر
أولادنا
كريم الدين البغدادى
أولادنا
١ عمرون شاه
٢ مملكة السحر
٣ كريم الدين البغدادى
٤ آلة الزمان
قصص حية رشيقة تغذي روح الطالب
وتجلو له في جميع مراحل النمو
عناصر اللغة والثقافة وسمو النفس
المجموعة التي تحبب الكتاب الصالح إلى الطالب
فيقبل عليه صغيرًا ويتعلق به كبيرًا
ويكون له نعم الزاد في سفرة الحياة
تصدرها
دار المعارف بمصر
١٢